بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿يسٓ﴾

الله أعلم بمعاني هذه الحروف المقطعة مع علمنا أن لها معانيَ جليلة.

﴿٢﴾ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾

أقسم الله تعالى بالقرآن الذي أحكم ألفاظه ومعانيه وشرّفه بما فيه من الحكمة والأحكام والبراهين.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

إنك - أيها النبي محمد - لمن المرسلين بوحي من الله إلى عباده.

﴿٤﴾ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

وأنت - أيها النبي - على طريق قويم وصراط مستقيم لا اعوجاج فيه؛ وهو طريق الإسلام.

﴿٥﴾ ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾

هذا القرآن أنزله الله العزيز في ملكه وحكمه، الذي يقهر من غالبه، ويخذل من حاربه، والذي ينتقم ممن عاداه، الرحيم بمن تاب إليه ووالاه.

﴿٦﴾ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾

أنزل الله القرآن إليك - أيها النبي - لتخوف به الكفار الذين لم يسبق لآبائهم الأقدمين أن جاءهم منذر من عند الله يخوفهم عقابه، فهم لاهون ساهون عن الإيمان والعمل الصالح، وكل طائفة أو جماعة تفقد الدعوة إلى الله تقع في الغفلة، فواجب على العلماء بالله والدعاة إلى سبيله تذكير الناس وتعليمهم ووعظهم.

﴿٧﴾ ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

لقد أوجب الله العذاب على أكثر الكفار بعد أن قامت عليهم الحجة ووضحت لهم المحجة، فهم لم يذعنوا للحق ولم يقبلوا الصدق، وإنما كفروا بالله وكذبوا رسوله ﷺ.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾

إن الله جعل هؤلاء الكفار الذين ردوا ما بُعث به الرسول ﷺ وعاندوا الحق، كمن جُعل في أعناقهم أغلالٌ فجمعت أيديهم مع أعناقهم تحت أذقانهم، فرفعوا رؤوسهم إلى السماء، هؤلاء الكفار غلَّ الله أيديهم عن كل خير، وأعمى الله بصائرهم عن كل رشد، فلا يفعلون خيرًا ولا يبصرون حقًا.

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾

وجعل الله من أمام الكفار سدًا من الظلمات، ومن ورائهم سدًا؛ فمثلهم كمثل من حُجب بسدٍ من أمامه ومن خلفه فلا يبصر شيئًا ولا يهتدي لسبيل، قد أعمى الله أبصارهم وطمس بصائرهم، وكل عدوٍ للإسلام واقع في هذه العقوبة بلا شك، فتجده حائرًا مترددًا ضالاً.

﴿١٠﴾ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

والأمر سيان عند أهل الكفر والطغيان، تخويفك إياهم - أيها النبي - بالعذاب وعدم تخويفك، فلن يؤمنوا ولن يستجيبوا.

﴿١١﴾ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾

إنما ينفع تخويفك - أيها النبي - من آمن بكتاب الله واتبعه وعمل بما فيه وخاف الرحمن وهو لم يره، وراقبه حيث لا يراه الناس، فبشر من هذا فعله بمغفرة تمحو ذنوبه وثواب عظيم على حسناته بالفوز برضوان الله ودخول جنته.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾

إن الله يحيي الموتى ويبعثهم من قبورهم للحساب، ويكتب ما عملوا من حسن وسيئ، ويكتب لهم ثواب ما تسببوا فيه من خير كالعلم النافع والولد الصالح والصدقة الجارية، ويكتب عقاب ما تسببوا فيه من شر كالكفر والبدعة والذنوب، وكل شيء من صلاح وفساد قد سطَّره الله في اللوح المحفوظ ببيان ووضوح، فليخف العبد ربه وليخش ذنبه، وليعلم أن أقواله وأفعاله محصاة عليه.

﴿١٣﴾ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

واضرب - أيها النبي - للكفار الذين كذبوك مثلاً يتفكرون فيه، وهو خبر أهل قرية حين أرسل الله إليهم رسلاً يدعونهم إلى عبادة الله وحده وينهونهم عن الإشراك به.

﴿١٤﴾ ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾

إذ أرسل الله إلى أهل القرية رسولين يدعونهم لإفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه، فكذب أهل القرية الرسولين، فأيد الله الرسولين وقواهما برسول ثالث، فأخبر الثلاثة أهل القرية أن الله أرسلهم إليهم بدعوة التوحيد.

﴿١٥﴾ ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾

فردَّ أهل القرية على الرسل وقالوا لهم: ما أنتم إلا أناس مثلنا ولا فضل لكم علينا، والله لم ينزل وحيًا على أحدٍ من الناس، وأنتم - أيها الرسل - تكذبون على الله، صان الله رسله - عليهم السلام - عن هذا البهتان.

﴿١٦﴾ ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾

قال الرسل لقومهم: الله ربنا الذي أرسلنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، ولم نكذب على الله ولم ندَّع ذلك من أنفسنا.

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾

والواجب علينا تبليغ رسالة الله بالبيان التام، وهذا عملنا، أما هدايتكم فعلى الله إذا شاء وليست علينا.

﴿١٨﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

فردّ أهل القرية على الرسل قائلين: إنا متشائمون منكم ومما جئتم به، لئن لم تتركوا دعوتنا وإنذارنا لنرمينَّكم بالحجارة حتى نقتلكم، ولينالنَّكم منا عذابٌ شديد موجع.

﴿١٩﴾ ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾

قال الرسل لقومهم: شؤمكم أنتم من أنفسكم ومن أعمالكم القبيحة كالشرك والمعاصي ولا تحيط إلا بكم، أإذا نصحتم لما فيه صلاحكم وفلاحكم تشاءمتم منا وتوعدتمونا بالرجم والنكال؟ بل أنتم متجاوزون للحدود في العصيان والطغيان.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

وجاء من محل بعيد في المدينة رجل مسرع لما بلغه أن أصحاب القرية عزموا على قتل الرسل والتنكيل بهم، فحذر قومه وقال: يا قومي، صدقوا الرسل واتبعوهم فإنهم على بينة من ربهم.

﴿٢١﴾ ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

اتبعوا يا قومي رسل الله الذين لا يطلبون منكم أجرةً على رسالتهم ودعوتهم، وهم على صواب ورشد فيما يدعون إليه من إخلاص العبادة لله والنهي عن الإشراك به، وفي هذا فضل الداعية إلى الله، وأما مرتبة الدعوة إليه -سبحانه- فهي من أشرف مراتب العبودية.

﴿٢٢﴾ ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

وماذا يمنعني من عبادة الله وحده وإخلاص الطاعة له وعدم الإشراك به، وهو الذي خلقني وإليه يعود الناس أجمعون.

﴿٢٣﴾ ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾

كيف أعبد من دون الله آلهة أخرى من الأصنام والأوثان لا تملك لي نفعًا ولا تدفع عني ضرًا، إن يردني الرحمن بسوء فلن تدفع عني الآلهة هذا السوء ولا تنجيني مما أنا فيه.

﴿٢٤﴾ ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

إني لو اتخذت آلهة من دون الله لفي ضلال بيّن وخطأ ظاهر وانصراف عن الحق.

﴿٢٥﴾ ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾

إني آمنت بربكم الله الذي لا إله إلا هو وأخلصتُ العبادة له، فاستمعوا لما أقول لكم سماع قبول واستجابة، وأطيعوني فيما دعوتكم إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له، فلما انتهى من كلامه قاموا إليه فقتلوه فتقبله الله شهيدًا وأدخله الجنة.

﴿٢٦﴾ ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾

قيل له بعدما قُتل في سبيل الله من أجل إعلاء كلمته: ادخل الجنة مكرمًا في حبور وسرور وقرة عين، قال - وهو في الجنة -: يا ليت أن قومي يعلمون ما أنا فيه من السعادة والكرامة.

﴿٢٧﴾ ﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾

وليتهم يعلمون بأن ربي غفر ذنبي وأكرمني ورفع منزلتي؛ لأني آمنت به وأخلصت العبادة له واتبعتُ رسله، فلعلهم إذا علموا ذلك أن يستجيبوا لرسل الله فيدخلوا الجنة مثلما دخلتها، فجزاه الله خيرًا، ما أنصحه لقومه حيًا وميتًا، وهكذا فليكن الداعية يحب الخير للجميع.

﴿٢٨﴾ ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾

وما استدعى الأمر إنزال جنود من السماء لتقابل هؤلاء الكفار لما كذبوا وقتلوا الداعية إلى الله، فالأمر أيسر من ذلك وهم أهون وأضعف من أن ينزل عليهم جندٌ من السماء، وما كان الله لينزل الملائكة على المكذبين لإهلاكهم بل يبعث عليهم عذابًا يبيدهم به.

﴿٢٩﴾ ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾

ما كان أخذهم وتدميرهم إلا بصيحة واحدة فإذا هم ميتون لا حركة لهم ولا أثر.

﴿٣٠﴾ ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يا حسرة الناس ويا ندامة العباد يوم العرض الأكبر إذا شاهدوا تلك الأهوال، ما يأتي الناس من رسول من عند الله يدعوهم إلى توحيده إلا سخروا منه واستهزؤوا به.

﴿٣١﴾ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

ألم يشاهد الكفار فيعتبروا كم من القرون أهلكهم الله، ولم يعودوا إلى هذه الحياة الدنيا؟

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

وكل هذه القرون التي أهلكها الله والأمم التي أبادها، سوف يحضرون كلهم ليوم الحساب ليجازيهم الله على ما فعلوا.

﴿٣٣﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾

وبرهان لهؤلاء الكفار على قدرة الله على إحياء الموتى: هذه الأرض الجدباء اليابسة التي لا نبت فيها، يحييها الله بالنبات الأخضر بعد إنزال الماء من السماء عليها، فيخرج من الأرض بالماء أنواع الثمار والحبوب، يأكل منها الإنسان والحيوان، ومن أحيا الأرض بالنبات أحيا الخلق بعد الممات.

﴿٣٤﴾ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾

وجعل الله في الأرض بساتين خضراء وحدائق غناء من نخيل وأعناب، وفجر فيها من عيون الماء ما يسقيها.

﴿٣٥﴾ ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

والله خلق ذلك كله ليأكل الناس من ثمره ويستعينوا بها على شكره، وهذا رحمة منه - سبحانه - وفضل منه لا بسبب سعي الناس ولا بحولهم ولا بقوتهم ولا بكدهم، فلماذا لا يشكرون الله على نعمه بطاعته وإخلاص العبادة له وعدم الإشراك به، وشكر المنعم واجب والمنعم حقيقة هو الله وحده.

﴿٣٦﴾ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

تنزه الله الماجد وتقدس الله العظيم وتبارك اسمه الذي خلق الأنواع والأصناف جميعها من الأشجار والثمار والحبوب ومن الناس ذكورًا وإناثًا، ومما لا يعلم الناس من سائر المخلوقات ومختلف أنواع الكائنات، فلما انفرد الله بالخلق استحق أن يُعبد وحده لا يُشرك به شيء.

﴿٣٧﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾

وبرهان للكفار على قدرة الواحد القهار: آية الليل كيف ينزع الله منه النهار بغروب الشمس فإذا الناس في ظلمة حالكة.

﴿٣٨﴾ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

وبرهان للكفار على قدرة الواحد القهار: هذه الشمس تسعى إلى مستقر قدره الله لها فلا تتعداه ولا تقف دونه، هذا التقدير والتوقيت هو من حكمة العزيز الذي يعز من والاه ويذل من عاداه، عزيز لا يغالب، وهو العليم الذي يقدر الأشياء بعلم وحكمة.

﴿٣٩﴾ ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرة الواحد القهار: هذا القمر؛ قدر الله سيره منازل ينزلها كل ليلة، يبدأ هلالاً ثم يكبر شيئًا فشيئًا حتى يصبح بدرًا منيرًا مستديرًا، ثم يعود شيئًا فشيئًا حتى يصغر مثل عذق النخلة المنحني في الرقة والضعف والصفرة بجفافه ويبسه.

﴿٤٠﴾ ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

لا يمكن للشمس أن تلحق بالقمر فتمحو نوره؛ لأن لها مجرى غير مجراه ومنازل غير منازله؛ فهي تسير بتوقيت من الله محدد والقمر كذلك، ولا يمكن لليل أن يسبق النهار فيدخل عليه قبل أن ينتهي وقته وتكتمل ساعاته، فوقت النهار معلوم محدد يزيد وينقص بحساب من الله، وكذلك الليل، وكلٌّ من الشمس والقمر والنجوم والكواكب في مدارات معلومة تجري لا تصطدم ببعضها، قد علم الله مسارها وقدر منازلها جل في علاه.

﴿٤١﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾

وبرهان لهم على تفرد الله بالربوبية والألوهية واستحقاقه للعبودية، أنه - سبحانه - حمل من نَجَّى من ولد آدم في سفينة نوح المملوءة بأصناف المخلوقات؛ ليبقى نوع الخلق بعد الطوفان، فحمايتهم من الغرق وهدايتهم للإيمان فضل من الله تعالى.

﴿٤٢﴾ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾

وخلق الله للبشر مثل سفينة نوح كثيرًا من السفن والمراكب؛ لنقلهم وحمل أرزاقهم وتسهيل أسفارهم.

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾

وإذا أراد الله أغرق السفن بمن عليها، فلا يجدون منقذًا لهم من الغرق ولا منجدًا لهم من الهلاك، ولا هم ينجون بأنفسهم.

﴿٤٤﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾

إلا أن يرحمهم الله فيحميهم من الغرق والهلاك، ويمتعهم بنعمه إلى وقت محدد، هو انتهاء أعمارهم لعلهم يتوبون ويؤمنون.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

وإذا قيل للكفار: خافوا عذاب الآخرة بالإيمان والعمل الصالح، واحذروا تقلبات الدنيا ومصائبها، لعل الله أن يرحمكم بصرف العذاب عنكم، حينها يعرضون ولا يستجيبون.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

وما يجيء هؤلاء الكفار من برهان واضح من عند الله يدلهم على الحق ويبين لهم الرشد إلا أهملوا النظر فيه وغفلوا عنه.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

وإذا قيل للكفار: أنفقوا مما تفضل الله به عليكم من النعم، ردوا على المؤمنين معاندين: كيف نطعم أناسًا لو أراد الله أن يطعمهم أطعمهم وهم خلقه وهو غني؟ ما أنتم - أيها المؤمنون - إلا في بُعد عن الحق وذهاب عن الرشد لأمركم لنا بذلك.

﴿٤٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

ويقول الكفار - مستبعدين منكرين -: متى تقوم القيامة إن كنتم - أيها المؤمنون - صادقين في قولكم بقيامها فأخبرونا بوقتها؟

﴿٤٩﴾ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾

ما ينتظر الكفار الذين يستبعدون القيامة إلا نفخة الهول الأكبر عند قيام الساعة فتهلكهم على غرة وهم يختصمون في أمور الدنيا.

﴿٥٠﴾ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

فلا يستطيع الكفار عند النفخ في الصور أن يوصوا ذريتهم وقرابتهم بشيء لضيق الزمان وهول الواقعة، ولا يستطيعون العودة إلى أسرهم في بيوتهم، بل يدركهم الموت وهم في طرقاتهم وأسواقهم.

﴿٥١﴾ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾

ونفخ المَلَكُ في القرن النفخة الثانية فعادت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم إلى موقف الحشر مسرعين.

﴿٥٢﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

قال الكفار - وقد أصابتهم الحسرة والندامة -: يا خيبتنا ويا هلاكنا، ما الذي أخرجنا من قبورنا؟ فيقال لهم: هذا ما سبق أن وعد به الرحمن الذي لا يخلف الميعاد، وسبق أن أخبر به الرسل، وقد صدقوا فيما أخبروا.

﴿٥٣﴾ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

ما احتاج بعث الناس من القبور إلا إلى نفخة واحدة في القرن، فإذا كل البشر واقفون للجزاء والسؤال.

﴿٥٤﴾ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

في هذا اليوم يكون الجزاء بالعدل، ولا تظلم نفس بنقص الحسنات ولا بزيادة السيئات، ولا يقع الجزاء إلا بما عمل العبد أو كان سببًا في هذا العمل من خير أو شر.

٥٥ ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾

إن أهل الجنة مشغولون عن غيرهم بالتنعم بألذ عيش وأجل نعمة وأتم سعادة، وهم مسرورون في قرة عين وأمن وبهجة وحبور.

٥٦ ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾

أهل الجنة يتنعمون هم وزوجاتهم تحت ظلال وارفة على أسرَّة جميلة مريحة.

٥٧ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾

لأصحاب الجنة في الجنة أصناف الفواكه الشهية من كل نوع، ولهم فيها كل ما يشتهون ويسألون من سائر الطيبات.

٥٨ ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾

ولهم فوز أعظم وكرامة أجل حين يكلمهم الرحمن الرحيم، فيحييهم بالسلام عليهم من الله الذي أنعم عليهم ورحمهم وصرف عنهم العذاب، فيا قرة عيونهم.

٥٩ ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

ويقال للكفار في يوم الحشر: انفصلوا عن المؤمنين ولا تختلطوا بهم، فلكم حال ولهم حال.

٦٠ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

ويقول الله لمن كفر من عباده - يلومهم ويبكتهم -: ألم أوجب عليكم لما أنزلت من كتبي على رسلي ألا تعبدوا الشيطان ولا تطيعوه؟ إنه عدو لكم بيّن العداوة شديد البغض.

٦١ ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

وأوجبت عليكم توحيدي وإفرادي بالعبودية وإخلاص الطاعة لي، وهذا هو الطريق القويم والصراط المستقيم الموصل إلى رضوان الله وجنته.

٦٢ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾

ولقد أغوى الشيطان عن الإيمان بشرًا كثيرًا، أفما كان لهم من عقول يفكرون بها وتنهاهم عن الغواية.

٦٣ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

هذه النار الموقدة أمامكم التي سبق أن وُعدتم بها في الدنيا إذا كفرتم وكذبتم.

٦٤ ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

ادخلوا النار واصلوا جحيمها وذوقوا حرَّها؛ عقابًا لكم على تكذيبكم وكفركم.

٦٥ ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

يوم القيامة يطبع الله على أفواه الكفار فلا يتكلمون، وإنما تتكلم أيديهم بما اجترحت، وتشهد عليهم أرجلهم بما مشت إليه وعملته من خطيئة.

٦٦ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾

ولو شاء الله لأعمى أبصار الكفار مثلما ختم على أفواههم فتسابقوا وأسرعوا إلى الصراط ليمروا من فوقه، فكيف يستطيعون المرور وقد أعمى الله أبصارهم؟

٦٧ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾

ولو شاء الله لغيَّر خلق الكفار وبدل أشكالهم وأقعدهم في أماكنهم، فلا يستطيعون المشي إلى الأمام ولا الرجوع إلى الخلف، وإنما يبقون حائرين مبهوتين.

﴿٦٨﴾ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾

ومن أطال الله عمره حتى يدركه الهرم والخرف رده إلى أول مراحل العمر في ضعف العقل وضعف الجسم كأنه طفل، أفلا يفكرون بعقولهم فيعلموا أن من فعل ذلك بخلقه قادر على إحيائهم من قبورهم؟

﴿٦٩﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾

وما علم الله رسوله ﷺ الشعر وليس له أن يكون شاعرًا؛ لأن الشاعر يهيم في أودية الباطل ويبالغ ويذهب وراء الخيال وقد يكذب، أما الرسول ﷺ فهو نبي معصوم صادق مصدق زكى الله سمعه وبصره وقلبه، فلا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحى، وما الوحي الذي أتى به إلا ذكر لأصحاب العقول السليمة والفطر القويمة، والقرآن الذي نزل عليه مبين لأحكام الشريعة وآدابها وأخلاقها.

﴿٧٠﴾ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

ليخوف النبي بالقرآن من كان حي القلب نيَّر البصيرة مستقيم الفطرة، ويكتب الله عذابه على من كفر به؛ لأن الله أقام عليهم الحجة بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ﷺ فانقطع عنهم العذر.

﴿٧١﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾

أولم ير الناس أن الله خلق لهم أنعامًا سخرها لمصالحهم؟ فهم مالكون أمرها متصرفون فيها تفضلاً منه وإحسانًا.

﴿٧٢﴾ ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾

وسخر الله للعباد هذه الأنعام، فمنها ما يأكلونه، ومنها ما يحلبونه، ومنها ما يركبونه، ومنها ما يحملون عليه أمتعتهم؛ فسبحان من أنعم بها على عباده وذللها لهم.

﴿٧٣﴾ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

وللناس منافع كثيرة في الأنعام، كالانتفاع باللحم واللبن والصوف والوبر والشعر، أفلا يشكرون الله على هذه النعم بإخلاص العبادة له ولزوم طاعته؟

﴿٧٤﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾

واتخذ الكفار من دون الله أصنامًا وأوثانًا يعبدونها رجاء نصر هذه الآلهة لهم والدفاع عنهم.

﴿٧٥﴾ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾

لا تقدر هذه الأصنام والأوثان على نصرة من عبدها كما أنها لا تنتصر لنفسها، والكفار مع ما يعبدون من الأصنام والأوثان محضرون عند الله للعذاب وعندئذ يتبرأ بعضهم من بعض.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

فلا يحزنك - أيها النبي - قول الكفار من التكذيب والاستهزاء والسخرية، إن الله يعلم ما أخفوا وما أظهروا وما أسروا وما أعلنوا، وسوف يحاسبهم على ذلك.

﴿٧٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

أولم ير الإنسان الجاحد ليوم القيامة والبعث بعد الموت كيف ابتدأ الله خلقه من نطفة، ثم ترقت به أحوال الخلق حتى صار رجلاً فتحول إلى جاحد معاند كثير الخصومة شديد الجدال؟

﴿٧٨﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

وضرب المنكر الجاحد لله ولرسوله ﷺ مثلاً لا يجوز له أن يضربه؛ لأنه جعل قدرة الرحمن كقدرة الإنسان، وأغفل أصل نشأته هو، فقال - منكرًا للبعث - من يحيي العظام إذا بليت وتفتت؟

﴿٧٩﴾ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

فأجب هذا الجاحد (وهو العاص بن وائل - أيها النبي -) وقل له: يحيي هذه العظام بعدما تبلى وتتفتت الذي أنشأها أول مرة، والإحياء بعد الموت أهون من الإنشاء من العدم، وهو - سبحانه - عالم بجميع خلقه لا يخفى عليه من أقوالهم ولا أعمالهم شيء.

﴿٨٠﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾

الله الذي أخرج من الأشجار الخضر الطرية الندية الرطبة نارًا محرقةً موقدة، فانظر كيف جمع بين الضدين جل في علاه، فإذا الناس يوقدون النار من الشجر الأخضر، فمن هذا فعله فهو قادر على إخراج الضد من الضد، وفي هذا برهان على قدرة الله في إحياء الموتى من قبورهم.

﴿٨١﴾ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

أوليس الله الذي خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما بقادرٍ على أن يخلق مثلهم فيعيدهم كما أنشأهم أول مرة؟ بلى إنه - سبحانه - قادر على ذلك، وهو الخلاق لكل مخلوق بحكمة وإتقان، العليم بخلقه المطلع على سرهم وعلانيتهم لا تغيب عنه غائبة.

﴿٨٢﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

إنما أمر الله إذا أراد أن يفعل شيئًا أو ينفذ أمرًا أو يخلق خلقًا أن يقول له: (كن) فيكون، ومن ذلك الخلق والتقدير والحياة والموت والبعث والنشور.

﴿٨٣﴾ ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

فتنزه الله عن أقوال المشركين وتقدس عن العيب وتعالى عن العجز والإشراك به، فهو المالك لكل الكائنات، المصرف لكل المخلوقات، المقدر لكل الحادثات، فلا ينازعه في الخلق أحد ولا يشاركه في الحكم بشر، بهرت معجزاته، وظهرت آياته، وكملت قدرته، وتمت نعمته، وإليه يعود العباد يوم المعاد؛ ليجازيهم على كل صلاح وفساد.

مكية

سورة الصافات

ترتيبها ٣٧

آياتها ١٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾

يقسم الله - عز وجل - بالملائكة تصف في عبادتها لربها صفوفًا مستوية متراصة.

﴿٢﴾ ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾

وأقسم الله تعالى بالملائكة تزجر السحاب وتسوقه بإذن الله من بلد إلى بلد.

﴿٣﴾ ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾

وأقسم الله تعالى بالملائكة تتلوا كتابه الكريم وذكره العظيم.

٤ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾

إن إلهكم - أيها العباد - إله واحد لا إله إلا هو لا رب سواه ولا شريك له، فوحدوه وأخلصوا له العبادة.

٥ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾

الله وحده هو خالق السموات والأرض وما بينهما، وهو خالق مشارق الشمس والقمر والنجوم والكواكب.

٦ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾

إن الله جمَّل السماء الدنيا وزينها بالنجوم وسائر الكواكب.

٧ ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾

وجعل سبحانه النجوم تحفظ السماء من كل شيطان عفريت غاوٍ متمرد يسترق السمع.

٨ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾

منع الله الشياطين أن تستمع كلام الملأ الأعلى؛ ليحفظ وحيه الذي أنزله على رسله، وتُرمى الشياطين بالشهب المحرقة من كل ناحية من نواحي السماء؛ لئلا يلتقطوا شيئًا من الوحي فيزيدوا فيه وينقصوا.

٩ ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾

يُطرد الشياطين طردًا عن استماع الوحي، ولهم في النار عذاب موجع دائم شديد.

١٠ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

إلا من سرق من الشياطين الكلمة من الوحي بسرعة، فيخبر بها من دونه ويلقيها الثاني إلى الثالث وهكذا، فربما أحرقه الشهاب قبل أن يبلّغها إلى الذي بعده، وربما أخبر بها قبل أن يحترق بالشهاب، فيخبر بها الكهان فيكذبون معها مئة كذبة.

١١ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾

فاسأل - أيها النبي - جاحدي البعث والنشور، هل هم أقوى خلقًا أم سائر المخلوقات الأخرى كالسموات والأرض؟ إن الله خلق أباهم آدم من طين لين رخو يلتصق بعضه ببعض.

١٢ ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾

بل عجبت - أيها النبي - من جحدهم للبعث، وأعجب من ذلك استهزاؤهم بك وبرسالتك.

١٣ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾

وإذا وُعظ الكفار بالوحي لا ينتفعون به ولا يتدبرون معانيه؛ لأنهم في إعراض وغفلة.

١٤ ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾

وإذا رأى الكفار برهانًا ومعجزة تدل على صدق الرسول ﷺ استهزؤوا بها وسخروا منها.

١٥ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

وقال الكفار: ما هذا الذي أتيت به - يا محمد - إن هو إلا سحر واضح لا يخفى على أحد.

١٦ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾

ويقول الكفار: أإذا متنا يا محمد وتحولت أجسادنا إلى تراب وبليت عظامنا وتفتت أنعود أحياء ونُبعث من قبورنا؟!

١٧ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾

وحتى آباؤنا الأولون بعدما ماتوا هل يبعثون من جديد؟ إن هذا الأمر بعيد!

١٨ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾

قل لهم - أيها النبي -: نعم سوف يبعثكم الذي خلقكم أول مرة وأنتم أذلاء صاغرون حقراء.

﴿١٩﴾ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾

فإنما بعثكم بعد الموت بنفخة واحدة فإذا أنتم خارجون من القبور تنتظرون أهوال القيامة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾

وقال الكفار: يا هلاكنا ويا خيبتنا هذا يوم الحساب الذي وُعدناه في الدنيا فكذبنا به.

﴿٢١﴾ ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾

فيقال لهم: هذا اليوم هو يوم الفصل بين الخلائق والحكم بين الناس بقضاء عدل من الله، وقد كنتم تكذبون به في الدنيا وتنكرونه.

﴿٢٢﴾ ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾

اجمعوا الكفار وأمثالهم وأشباههم وآلهتهم المعبودة من دون الله.

﴿٢٣﴾ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾

فسوقوا - أيها الملائكة - الكفار وأمثالهم وآلهتهم إلى النار سوقًا عنيفًا غليظًا.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾

واحبسوا - أيها الملائكة - الكفار وآلهتهم قبل أن يدخلوا النار، إن الله سوف يسألهم عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الحياة الدنيا سؤال إنكار وتوبيخ.

﴿٢٥﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾

ويقال لهم وهم في العذاب: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا في هذا اليوم العصيب؟

﴿٢٦﴾ ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾

بل الكفار في يوم القيامة خاضعون لأمر الله منقادون لحكمه لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾

وعاد بعض الكفار في يوم القيامة بعضهم على بعض يلومونهم ويخاصمونهم .

﴿٢٨﴾ ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾

وقال الضعفاء للسادة: إنكم كنتم تأتوننا من قِبَل الخير والحق وتوهموننا بأنكم ناصحون لنا، فتحسِّنون لنا الغواية وتكرهوننا في الهداية.

﴿٢٩﴾ ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

قال السادة للضعفاء: ليست المسألة كما ادعيتم، بل كانت نفوسكم قابلة للضلال كارهة للإيمان.

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾

ولم يكن لنا عليكم من حجة أو سلطة فنمنعكم عن الهداية، بل كنتم متجاوزين للحدود مسرفين على أنفسكم بالكفر.

﴿٣١﴾ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾

فشملنا جميعًا العذاب من الله، فنحن نذوقه وإياكم، سواء بما قدمناه من كفر وتكذيب.

﴿٣٢﴾ ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾

وكنا سببًا في ضلالكم وكفركم بالله، إنا كنا ضالين من قبل ضلالكم فاتبعتمونا على الكفر فخسرنا جميعًا.

﴿٣٣﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾

فإن الضعفاء والسادة متقاسمون العذاب، كلٌ له حصة من النكال، كما تقاسموا الكفر في الدنيا واشتركوا في الضلال.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾

إن سنة الله في الفجار عقابهم والانتقام منهم؛ جزاءً على سوء أفعالهم.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾

إن الكفار كانوا إذا دُعوا إلى لا إله إلا الله وتحقيق معناها والعمل بمقتضاها عصوا وعاندوا وأبوا ذلك.

﴿٣٦﴾ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾

ويقول الكفار إذا دُعوا إلى التوحيد: كيف نترك عبادة الأصنام والأوثان من أجل قول رجل شاعر مجنون؟ -يقصدون بذلك الرسول ﷺ صانه الله عن قولهم- انظر كيف اضطربوا في قولهم فلم يثبتوا على وصف.

﴿٣٧﴾ ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾

بل إن الرسول ﷺ نبي معصوم جاء بالقرآن والإيمان وليس بشاعر ولا مجنون ولا ساحر ولا كاهن، وإنما أتى بشرع يوافق ما جاء به الأنبياء قبله.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾

إنكم - أيها الكفار - على كفركم وتكذيبكم ومحاربتكم لله ورسوله سوف تذوقون عذاب جهنم المؤلم الفظيع.

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

والعذاب الذي تذوقونه إنما هو على أعمالكم القبيحة في الدنيا ولم يظلمكم الله شيئًا.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

لكن عباد الله الصادقين المخلصين في عبادتهم ناجون من عذاب الله، وهم في النعيم مقيمون.

﴿٤١﴾ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾

وهؤلاء المخلصون الصادقون لهم في جنات النعيم رزق معلوم لا ينقطع؛ لأنه من عند الله تعالى.

﴿٤٢﴾ ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾

هذا الرزق المعلوم فواكه متنوعة وثمار متعددة في مقام كريم آمن وفي سرور وحبور.

﴿٤٣﴾ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

وهؤلاء الأبرار خالدون في جنات النعيم الدائم المقيم، في مقعد كريم بجوار الرحمن الرحيم.

﴿٤٤﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾

وهؤلاء الأبرار جالسون على سرر يقابل بعضهم بعضًا بالوجوه زيادة في الأنس والنعيم.

﴿٤٥﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾

يُدار على هؤلاء الأبرار في مجالس الأنس والرضا بكؤوس خمر من أنهار جارية لا تنقضي ولا تنقطع.

﴿٤٦﴾ ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾

وهذه الخمر ليست كخمر الدنيا بل هي بيضاء في لونها، لذيذة في شربها.

﴿٤٧﴾ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾

وهذه الخمر لا تغتال العقل كخمر الدنيا، فهي لا تذهب الوعي ولا تؤذي الجسم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾

وعند الأبرار في جنات النعيم نساء جميلات عفيفات واسعات الأعين حسانها، لا ينظرن إلى غير الأزواج.

﴿٤٩﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾

كأن نساء الجنة كالبيض المصون المحفوظ الذي لم تمسه الأيدي ولم تبتذله العيون.

٥٠ ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

فأقبل بعض الأبرار في الجنة بالحديث على بعض، يتساءلون عن أيامهم الماضية في الدنيا وكيف نجاهم الله من العذاب وأكرمهم بالفوز العظيم، وهذا من تمام الأنس.

٥١ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾

قال قائل من هؤلاء الأبرار وهو في الجنة: إنه سبق أن كان لي صديق ملازم لي في الدنيا.

٥٢ ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾

وهذا الصديق كان ينكر يوم القيامة والبعث بعد الموت ويقول لي منكرًا: هل تصدق بهذا الكلام؟

٥٣ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

كيف نُبعث بعد الموت لنحاسب على أعمالنا بعدما صارت أجسامنا ترابًا وتفتت وتلاشت؟

٥٤ ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾

قال المؤمن لأصحابه في الجنة: هل تريدون النظر لمصير هذا الصاحب الذي كان معي في الدنيا؟

٥٥ ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

فنظر المؤمن فرأى قرينه الكافر في وسط النار يصلى حرَّها.

٥٦ ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾

قال المؤمن لقرينه الكافر: والله لقد أوشكت أن تضلني وتدخلني معك النار بتزيينك الباطل لي.

٥٧ ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

ولولا أن الله رحمني بالهداية وتفضل عليَّ بالإيمان لكنتُ ممن أحضره الله للعذاب يوم القيامة.

٥٨ ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾

أحقًا أننا باقون في جنات النعيم لا نموت فيها وإنما ننعم أبدًا وهذا هو الفوز الكبير.

٥٩ ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾

ولا نموت غير الموتة الأولى التي ذقناها في الحياة الدنيا.

٦٠ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

إن النعيم الذي نحن فيه لهو الكرامة العظمى والظفر الأكبر والسعادة الأبدية.

٦١ ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾

لمثل هذا الظفر العظيم والفوز الكريم والنعيم المقيم في جوار رب كريم فليعمل العاملون في الحياة الدنيا؛ لينالوا هذه المراتب العالية.

٦٢ ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾

أذلك النعيم والفوز والكرامة والنجاة أفضل أم شجرة الزقوم المرة الطعم القبيحة المنظر الخبيثة المنشأ التي هي طعام الكفار في النار؟

٦٣ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾

إن الله جعل شجرة الزقوم فتنة للكفار؛ لأنهم يتساءلون منكرين: كيف يخبر محمد أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر.

٦٤ ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

إن شجرة الزقوم شجرة أنبتها الله في قعر جهنم؛ لأنه - سبحانه - قادر على الجمع بين الضدين الخضرة والنار.

٦٥ ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾

ثمر شجرة الزقوم في النار قبيح شنيع المنظر كأنه رؤوس الشياطين، فإذا كان هذا هو شكل الثمر فما أقبح طعمه وما أخبث مذاقه.

٦٦ ﴿ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾

فإن الكفار في النار يأكلون من الشجرة الملعونة الخبيثة فيملؤون منها بطونهم تنكيلاً بهم.

٦٧ ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾

ثم إن الكفار بعد الأكل من الزقوم في النار لشاربون شرابًا خبيثًا حارًا مرًا، فالطعام زقوم، والماء حميم، والهواء سموم.

٦٨ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾

ثم إن مرد الكفار بعد هذا العذاب إلى نار جهنم فلا مخرج لهم منها.

٦٩ ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾

إن الكفار وجدوا آباءهم الضلّال على الشرك فقلدوهم في الضلالة.

٧٠ ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾

فهم يتبعون آثار الآباء بلا حجة ولا دليل، شأن الجاهل المقلد الذي يسرع في اتباع من ضلَّ.

٧١ ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

ولقد ضل عن الهداية قبل كفار قومك - أيها النبي - أكثر القرون الماضية.

٧٢ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾

ولقد أرسل الله في تلك القرون أنبياء يخوفونهم النار وغضب الجبار فكذبوهم.

٧٣ ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

فتأمل كيف كانت نهاية تلك القرون الكافرة لما كذبت رسل الله كيف هلكت وصارت مثلاً للعالمين.

٧٤ ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة وأفردوه بالطاعة خصهم الله بفضله ورحمته وأكرمهم بجنته.

٧٥ ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾

ولقد دعا نوح وهو في الكرب ربه واستغاث به لينصره على قومه، فلنعم المجيب الله، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

٧٦ ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

ونجّى الله نوحًا والمؤمنين من أهله من أذى الكفار والهلاك والدمار، فنال الفوز في الدنيا والآخرة.

٧٧ ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾

وأكرم الله نوحًا بأن جعل ذريته هم الباقين في الأرض بعد هلاك قومه بالطوفان.

٧٨ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾

وأبقى الله لنوح في الدنيا ذكرًا جميلاً وثناءً حسنًا يمدحه الأخيار ويثنى عليه الأبرار.

٧٩ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

أمان من الرحمن وسلامة من الديان لنوح من أن يذكر بسوء في الآخرين، بل يُثنى عليه بالمحامد في العالمين.

٨٠ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

مثلما أثاب الله نوحًا وأكرمه يُثيب - سبحانه - ويُكرم كل من أحسن في طاعة مولاه وصدق في عبادة ربه.

﴿٨١﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

إن نوحًا من عباد الله الصادقين المخلصين.

﴿٨٢﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾

ثم أغرق الله من كفر من قوم نوح فأبادهم جميعًا.

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾

وإن من أنصار نوحٍ وأشياعه على طريقته ونهجه وملته خليل الله إبراهيم عليه السلام.

﴿٨٤﴾ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

حين جاء إبراهيم ربه بقلب بريء من كل اعتقاد باطل وُخلق ذميم، ليس فيه إلا الله وطاعته ومحبته.

﴿٨٥﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾

إذ قال إبراهيم لقومه - منكرًا عليهم -: ما هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله وهي لا تنفع ولا تضر؟!

﴿٨٦﴾ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾

أتعبدون آلهةً مزعومة مختلقة وتتركون عبادة الله الذي لا إله إلا هو وهو المستحق للعبادة وحده؟!

﴿٨٧﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

فماذا تظنون بالله - سبحانه - رب العالمين أن يفعل بكم إذا كفرتم به وعبدتم غيره؟

﴿٨٨﴾ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾

فنظر إبراهيم في النجوم نظرة المتأمل الذي يريد عذرًا يتعذر به من الخروج معهم إلى أعيادهم.

﴿٨٩﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾

فقال إبراهيم لقومه: إني مريض، وهذا عذر فيه تعريض.

﴿٩٠﴾ ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾

فتركوا إبراهيم خلف ظهورهم وذهبوا إلى أعيادهم.

﴿٩١﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾

فمال مسرعًا بفأسه إلى أصنام قومه فقال مستهزئًا بها: ألا تأكلون هذا الطعام الذي وضعه لكم المشركون؟!

﴿٩٢﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾

ما لكم لا تتكلمون فتجيبون سؤالي إن كنتم تستطيعون النطق.

﴿٩٣﴾ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾

فتقدم إبراهيم إلى الأصنام يضربها ويكسرها بيده اليمنى ليثبت للكفار أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تدافع حتى عن ذواتها.

﴿٩٤﴾ ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾

فعاد قوم إبراهيم إليه يعدون في سرعة وغضب وقد هالهم ما فعل.

﴿٩٥﴾ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾

فسألهم إبراهيم في شجاعة وثبات: كيف تعبدون أصنامًا تنحتونها أنتم بأيديكم، فكيف يكون المصنوع إلهًا معبودًا؟!

﴿٩٦﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

وتتركون عبادة الله وهو الذي خلقكم وخلق ما تعملونه بأيديكم.

﴿٩٧﴾ ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾

فلما غلبهم بالحجة مالوا إلى القوة، وقالوا: ابنوا لإبراهيم بنيانًا واملؤوه حطبًا وأوقدوه نارًا وضعوا إبراهيم فيه.

﴿٩٨﴾ ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾

فأراد قوم إبراهيم مكيدة يهلكونه بها فجعلهم الله الأذلين الأخسرين، حيث غلبهم بالحجة وبار كيدهم وفشل مكرهم.

﴿٩٩﴾ ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

وقال إبراهيم: إني مهاجر إلى الله من وطن الكفار إلى وطن أستطيع فيه عبادة الله وطاعته، وفي هذا مشروعية الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا لم يستطع المسلم القيام بعبادة الله، ثم قال إبراهيم: فإن ربي سيرشدني إلى أهدى الطرق في أمر ديني ودنياي.

﴿١٠٠﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

ثم دعا إبراهيم ربه أن يرزقه ولدًا صالحًا ليقوم بميراث العلم والدعوة من بعده.

﴿١٠١﴾ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾

فأجاب الله دعوة إبراهيم ورزقه إسماعيل حيث كان عاقلاً في صغره مباركًا في كل أمره.

﴿١٠٢﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

فلما شبَّ إسماعيل وذهب مع أبيه قال له أبوه: إن الله أراني في المنام وأمرني بذبحك، فما رأيك؟ (ورؤيا الأنبياء حق)، فأجاب إسماعيل مستسلمًا لأمر الله طائعًا لأبيه راضيًا عن ربه: أقدم على ما أمرك الله به من ذبحي فسوف تجد مني الصبر على قضاء الله والطاعة لأمره واحتساب ما عنده من الثواب.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾

فلما انقاد إبراهيم وإسماعيل لأمر الله وطرح إبراهيم إسماعيل على جبينه وهو جانب الجبهة ووضعه على الأرض ليذبحه.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾

نادى الله إبراهيم في ذلك المقام الهائل العظيم.

﴿١٠٥﴾ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

أن يا إبراهيم قد فعلت ما أمرك الله به في الرؤيا، إن الله كما أثابك على تصديقك وامتثال أمر ربك كذلك يثيب الله من أحسن الاستجابة وأطاع ربه فينجيهم من الكربات ويسلمهم من الأزمات.

﴿١٠٦﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾

إن أمر الله لإبراهيم بذبح ابنه إسماعيل بلاء عظيم وامتحان كبير لا يصبر عليه إلا أولو العزم.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾

وفدى الله إسماعيل من الذبح بكبش عظيم ذبحه إبراهيم مكان ابنه فكانت سنة الهدي في عيد الأضحى.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾

وأبقى الله على إبراهيم في القرون التي بعده ذكرًا حسنًا وثناءً جميلاً.

﴿١٠٩﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾

تحية مباركة وسلامة من كل آفة وأمنًا من كل خوف على إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.

﴿١١٠﴾ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

وكما أثاب الله إبراهيم على حسن استجابته يثيب الله كل من أحسن الاستجابة له من عباده.

﴿١١١﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

إن إبراهيم من عباد الله الصادقين المخلصين الذين أطاعوا الله حق طاعته.

﴿١١٢﴾ ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

وبشر الله إبراهيم بابنه إسحاق وجعله نبيًا من الصالحين؛ ثوابًا لإبراهيم على صبره وامتثال أمر ربه ورضاه بقضاء مولاه.

﴿١١٣﴾ ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾

وأنزل الله البركة واليمن على إبراهيم وعلى إسحاق، وجعل من ذريتهما مَنْ هو صالح يتقي ربه ومَنْ هو ظالم لنفسه بالشرك والمعاصي والذنوب.

﴿١١٤﴾ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾

ولقد تفضل الله وأنعم على موسى وهارون بالنبوة والرسالة والنصر والتأييد.

﴿١١٥﴾ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾

ونجّى الله موسى وهارون ومن معهما من بني إسرائيل من الغرق والاستعباد الذي كان يلحقهم من فرعون.

﴿١١٦﴾ ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾

ونصر الله موسى وهارون وقومهما، فكان لهم النصر والتمكين وعلو الكلمة على فرعون وقومه.

﴿١١٧﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾

وأعطى الله موسى وهارون التوراة الواضحة البينة فيها العقائد والأحكام.

﴿١١٨﴾ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

وأرشد الله موسى وهارون إلى الصراط المستقيم الذي هو دين الإسلام الذي بُعث به كل الأنبياء عليهم السلام.

﴿١١٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾

وأبقى الله لموسى وهارون في القرون القادمة ذكرًا جميلاً وثناءً حسنًا أبد الدهر.

﴿١٢٠﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾

تحية من عند الله مباركة طيبة وسلامة من كل آفة على موسى وعلى هارون مع الرضا والإكرام.

﴿١٢١﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

وكما أثاب الله موسى وهارون الثواب العظيم على حسن عملهما كذلك يثيب الله كل من أحسن من عباده في طاعته.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

إن موسى وهارون من عباد الله الموقنين الراسخين في الإيمان.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

وإن النبي الكريم إلياس - عليه السلام - من أنبياء الله الذين شرَّفهم بالرسالة وأكرمهم بالنبوة.

﴿١٢٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

إذ قال إلياس لقومه من بني إسرائيل: اتقوا الله بإخلاص العبادة له وعدم الإشراك به وإفراده بالتوحيد.

﴿١٢٥﴾ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾

كيف تعبدون صنمًا لا ينفع ولا يضر وتتركون عبادة الله أحسن الخالقين؛ الذي يخلق من العدم ويحيي بعد الإماتة، ويتقن في خلقه ويحسن في صنعه؟

﴿١٢٦﴾ ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

والله وحده هو ربكم الخالق الرازق وهو الذي خلق آباءكم السابقين ورزقهم فلا إله لكم غيره.

﴿١٢٧﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

فكذب قوم إلياس رسولهم فسوف يجمعهم الله يوم القيامة ليجازيهم على أفعالهم.

﴿١٢٨﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

إلا عباد الله الذين أخلصوا له العبادة وصدقوا في طاعته، فإن الله سوف ينجيهم من العذاب فضلاً منه وكرمًا.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾

وجعل الله لإلياس ذكرًا حسنًا وثناءً جميلاً فيمن بعده من الأجيال.

﴿١٣٠﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾

تحية من الله وثناء جميل وأمان من كل خوف وحزن على إلياس.

﴿١٣١﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

وكما أثاب الله إلياس وأكرمه يثيب ويكرم كل من أحسن في عبادة ربه واتقى مولاه.

﴿١٣٢﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

إن إلياس من عباد الله الذين صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في دينهم، وكانوا على يقين من ربهم.

﴿١٣٣﴾ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

وإن نبي الله لوطًا - عليه السلام - اختاره الله لرسالته وأكرمه بنبوته.

﴿١٣٤﴾ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾

إن الله نجى لوطًا وأهله كلهم من عذابه الشديد وسلمهم من العقاب.

﴿١٣٥﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾

لكن الله أهلك مع المعذبين زوجة لوط العجوز الهرمة؛ لأنها شاركتهم في الغواية والفساد.

﴿١٣٦﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾

ثم أهلك الله المكذبين من قوم لوط وأبادهم وجعلهم عبرة للعالمين.

﴿١٣٧﴾ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾

وإنكم - يا كفار مكة - لتمرون وأنتم مسافرون على ديار قوم لوط ومساكنهم وقت الصباح.

﴿١٣٨﴾ ﴿وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وتمرون على ديارهم أيضًا ليلاً أفلا تتفكرون فيما حل بهم فتخافون عذاب الله.

﴿١٣٩﴾ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

وإن نبي الله يونس - عليه السلام - لمن الأنبياء الذين اصطفاهم الله لرسالته وأكرمهم بنبوته.

﴿١٤٠﴾ ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾

إذ هرب يونس من ديار قومه ولم يأذن له الله بذلك، فركب في السفينة المملوءة بالمسافرين والبضائع.

﴿١٤١﴾ ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾

وأدرك الغرق السفينة في البحر، فعمل أهل السفينة قرعةً فَمَنْ وقعت عليه أُلقي في البحر؛ تخفيفًا لحمولة السفينة، فكان يونس ممن وقعت عليه القرعة.

﴿١٤٢﴾ ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

فرُمي بيونس من السفينة في البحر فابتلعه الحوت، ويونس قد فعل بهروبه بلا إذن ما يُلام عليه.

﴿١٤٣﴾ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾

فلولا ما سبق ليونس من الصلاح وكثرة العبادة ودوام الذكر إضافة إلى تسبيحه وهو في بطن الحوت بقوله: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين».

﴿١٤٤﴾ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

لبقي في بطن الحوت إلى قيام الساعة.

﴿١٤٥﴾ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾

فأخرجه الله وطرحه من بطن الحوت وألقاه في أرض صحراء مقفرة لا شجر فيها ولا عمار، وهو ضعيف البدن معلول الصحة من هول ما مر به.

﴿١٤٦﴾ ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾

وأنبت الله على يونس وهو في الصحراء شجرة القرع يتظلل بها ويأكل من ثمرها.

﴿١٤٧﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾

وأرسل الله يونس بعدما أخرجه من بطن الحوت إلى مئة ألف من قومه بل يزيدون على هذا العدد.

﴿١٤٨﴾ ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

فصدقه قومه واتبعوه فمتعهم الله بالنعم إلى انتهاء أعمارهم.

﴿١٤٩﴾ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾

فاسأل - أيها النبي - قومك: كيف ينسبون البنات اللاتي يكرهونهن إلى الله، وينسبون البنين الذين يحبونهم إلى أنفسهم، ما هذا التحكم الباطل والجور في الحكم.

﴿١٥٠﴾ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾

واسأل الكفار - أيها النبي -: هل هم حاضرون يوم خلق الله الملائكة إناثًا فهم يشهدون بما يعرفون.

﴿١٥١﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾

ومن كذبهم القبيح وفريتهم العظيمة.

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾

أنهم يزعمون أن الله له ولد، تنزه عن ذلك فهم كاذبون فيما قالوا، فالله لم يلد ولم يولد.

﴿١٥٣﴾ ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾

لماذا يختار الله البنات دون البنين فيجعل على زعمهم الملائكة بناتٍ له؛ تعالى الله، عن ذلك.

﴿١٥٤﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

قبحًا لحكمكم هذا وسوء اختياركم حيث نسبتم إلى الله ما تكرهونه من البنات، ونسبتم إلى أنفسكم ما تحبونه من البنين!!

﴿١٥٥﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

أفلا تعلمون أنه لا يجوز أن يكون لله ولد فإنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

﴿١٥٦﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾

ألكم برهان واضح على صحة قولكم وزعمكم الباطل بأن البنات لله.

﴿١٥٧﴾ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

إن كان لكم برهان واضح في كتاب من الله فأطلعوني عليه إن كنتم صادقين.

﴿١٥٨﴾ ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

وجعل الكفار بين الله والملائكة نسبًا ورحمًا، ولقد علمت الملائكة أن الكفار سوف يحضرهم الله للعذاب عنده يوم القيامة، وقيل: إن الجِنَّة هم الجن، فيكون المعنى: ولقد علم الجنُّ أن الله سوف يحضرهم للحساب عنده يوم القيامة.

﴿١٥٩﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

تنزه الله وتقدس وتعالى عن كل وصف وصفه به أعداؤه من الكفار، وإنما يوصف بما وصف به نفسه ووصفه رسوله ﷺ.

﴿١٦٠﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

لكن عباد الله الذين أخلصوا له بريئون مما يصفه به الكفار المشركون.

﴿١٦١﴾ ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾

فإنكم - أيها الكفار - وما تعبدونه من دون الله من أصنام وأوثان.

﴿١٦٢﴾ ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾

ما تستطيعون أن تضلوا أحدًا إلا إذا شاء الله تعالى.

﴿١٦٣﴾ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾

ممن قدر الله أن يصلى الجحيم فاتبع أهل الضلالة.

﴿١٦٤﴾ ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾

تقول الملائكة: ما منا من أحد إلا له مقام خاص به معلوم له في السماء، كل له مهمة.

﴿١٦٥﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾

وإنا نحن الملائكة نصف صفوفًا في عبادة ربنا وطاعته في ترتيب ونظام.

﴿١٦٦﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾

وإنا نحن الملائكة لنقدس الله وننزهه عما لا يليق، ونثني عليه بأوصافه الجليلة سبحانه.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾

وإن كان الكفار ليقولون بلا علم قبل مبعث الرسول ﷺ.

﴿١٦٨﴾ ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾

لو جاءنا مثل ما أتى القرون السابقة من الكتب والرسل.

﴿١٦٩﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

لآمنا وأصبحنا مخلصين في عبادة ربنا وطاعة مولانا.

﴿١٧٠﴾ ﴿فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

فلما أتاهم الذكر الحكيم والنبي الكريم وهداهم إلى الصراط المستقيم كفروا بالله العظيم، فسوف يعلمون ما لهم من العقاب إذا دخلوا نار الجحيم .

﴿١٧١﴾ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾

ولقد سبقت كلمة الله التي لابد من وقوعها ولا راد لها لرسل الله عليهم السلام.

﴿١٧٢﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾

إن العاقبة لهم، وإن النصر معهم، وإن الظفر والفوز حليفهم، وإن الله يؤيدهم بالحجة والقوة.

﴿١٧٣﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

وإن جند الله المجاهدين في سبيله لإعلاء كلمته لهم النصر والغلبة بإذن الله على أعداء الله في كل موقف، سواء في باب الحجة أو القوة؛ لأن العاقبة للمتقين.

﴿١٧٤﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

فأعرض - أيها النبي - عمن كفر وأبى الانقياد حتى يمر الزمن الذي أمهلهم الله، ويحين وقت عذابهم وأخذهم.

﴿١٧٥﴾ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾

وانتظر وارتقب ماذا سوف يفعل الله بهم، فإنهم سوف يرون عاقبة عملهم وجزاء كفرهم.

﴿١٧٦﴾ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾

أفبوقوع عذاب الله عليهم يستعجلونك - أيها النبي - ويستبطئون هذا العذاب النازل بهم لا محالة؟!

﴿١٧٧﴾ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾

فإذا أنزل عذاب الله بأعداء الله فبئس الصباح صباحهم فما أقبحه من صباح!

﴿١٧٨﴾ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

وأعرض - أيها النبي - عن الكفار حتى يمر زمن المهلة لهم ويحين وقت عذابهم.

﴿١٧٩﴾ ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾

وانتظر وترقب ماذا سوف يفعل الله بهم من النكال، فإنهم سوف يرون عاقبة فعلهم ونتيجة عملهم.

﴿١٨٠﴾ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

تنزه الله وتعالى وتقدست أسماؤه رب العزة والمجد والجبروت عن كل وصف لا يليق به وصفه به أعداؤه.

﴿١٨١﴾ ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾

وثناء الله المبارك وتحيته الدائمة وأمانه على رسله المجتبين الأخيار.

﴿١٨٢﴾ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

والحمد أوله وآخره لله رب العالمين، فهو المستحق للحمد وحده؛ لكثرة صفات المدح والكمال فيه، ولكثرة أياديه الجليلة ونعمه الجزيلة، والشكر والثناء له في الدنيا والآخرة.

مكية

سورة ص

ترتيبها ٣٨

آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿صٓ ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، مع علمنا أن لها معانٍ جليلة، وأقسم - سبحانه - بكتابه العظيم الذي فيه عظة العباد وتذكيرهم بيوم المعاد، ونصحهم بالاستعداد وأخذ الزاد.

٢ ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾

لكن الكفار في كبر وإعراض عن الهدى إذ خالفوا الله ورسوله وتعدوا حدوده وأعرضوا عن شرعه.

٣ ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾

كم أفنى الله بالعذاب من أمة سبقت هذه الأمة بسبب كفرهم فاستغاثوا لما نزل بهم العقاب وأذعنوا لله وأعلنوا التوبة، ولكن الزمن ليس زمن توبة ولا مهرب فلا مفر مما أصابهم.

٤ ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

وعجب الكفار من إرسال النبي محمد ﷺ وقالوا: لماذا يكون بشرًا منا وليس مَلَكًا؟! إنما هو كاذب في قوله ساحر لقومه وليس برسول من عند الله.

٥ ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾

كيف ادعى هذا الرسول أن الآلهة الكثيرة صارت إلهًا واحدًا؟! إن هذا الوحي الذي أتى به ودعوته إلى الله لشيء عجيب لا يقبله العقل لغرابته.

٦ ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾

وانطلق سادة الكفار وأعيانهم يحرضون إخوانهم من أهل الكفر والتكذيب على الشرك والصبر على دينهم الباطل وعبادة عدة آلهة دون الله، إن ما دعا إليه النبي ﷺ أمر مقصود مدبر يريد به العلو في الأرض والصدارة.

٧ ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾

ما سمعنا بمثل ما دعا إليه من الدعوة إلى توحيد الله بالعبادة عند من سبقنا من آبائنا وأجدادنا ولا في ملة النصرانية، ما هذا إلا زور وبهتان وافتراء.

٨ ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾

كيف يختص محمدًا بالرسالة من دوننا وهو بشر مثلنا لا ميزة له علينا؟ بل الكفار في حيرة وريب من إنزال الوحي من الله على الرسول ﷺ؛ إنما قالوا ذلك لأنهم لم يذوقوا عذاب الله فهان عليهم أمره، ولو ذاقوا العذاب لما كذبوا بالكتاب.

٩ ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾

هل عند كفار قريش خزائن الله من الفضل والرحمة الذي عزَّ في ملكه وقهر من غالبه، وهو الوهاب الذي يعطي مَنْ أراد من العباد من الفضل والإحسان بلا حساب، ولو كانوا يملكون الخزائن لبخلوا بها.

١٠ ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾

أم أن هؤلاء الكفار مسيطرون على ما في السموات والأرض وما بينهما فيتحكمون في الرحمة والرزق فيعطون من أرادوا ويمنعون من أرادوا؟ فليصعدوا في الطرق الموصلة إلى السماء وليمنعوا الملائكة من إنزال القرآن على الرسول ﷺ.

١١ ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾

هؤلاء الكفار جند مكذبون للرسالة مهزومون في مواجهة الحق مثلما غُلبت الأمم المكذبة التي سبقتهم.

١٢ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾

وكذبت قبل تكذيب كفار قريش قوم نوح وعاد وفرعون صاحب الجنود الأقوياء والبأس الشديد.

١٣ ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۖ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾

كذبت قبلهم ثمود قوم صالح وقوم لوط وأصحاب الشجرة العظيمة قوم شعيب، وهؤلاء الأقوام تعاونوا على الكفر وتساعدوا على حرب رسلهم ومعاداة الحق.

﴿١٤﴾ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾

كل قوم من هؤلاء الأقوام كذبوا رسولهم فاستحقوا العقاب من الله على كفرهم فنزل بهم العذاب.

﴿١٥﴾ ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾

وما ينتظر الكفار لنزول الهلاك بهم إن استمروا على كفرهم إلا نفخة واحدة ما لها من رجوع، فليس لهم بعدها من توبة ولا إقالة.

﴿١٦﴾ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾

وقال الكفار - استهزاءً وسخرية -: يا ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب في الدنيا قبل قيام الساعة؛ لأنهم يستبعدون ذلك.

﴿١٧﴾ ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

اصبر - أيها الرسول - على ما يقوله الكفار فيك وفي دعوتك كقولهم: إنك شاعر ساحر كاهن مجنون - صانه الله عن ذلك - واذكر وتعز بعبد الله النبي الصالح داود صاحب القوة في أمر الله والشجاعة في مقابلة أعداء الله والصبر على طاعة الله، وقد كان كثير الرجوع إلى ربه ومولاه والتوبة من ذنوبه.

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾

إن الله طوع الجبال مع داود فكانت تسبح بتسبيحه كل صباح ومساء.

﴿١٩﴾ ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾

وطوَّع الله الطير مع داود تجتمع عنده للتسبيح وتأتمر بأمره.

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾

وقوّى الله ملك داود بالتمكين والهيبة والعدة والجند وأكرمه الله بالنبوة والعلم والفصل في الكلام بحسن الخطابة في الحكم بالعدل.

﴿٢١﴾ ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾

وهل بلغك - أيها النبي - قصة الاثنين المتخاصمين اللذين صعدا على سور محراب داود وكان يعبد ربه.

﴿٢٢﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾

حيث دخلا فجأة على داود فارتاع منهما؛ لأنهما لم يستأذنا، فقالوا لداود: لا تخف منا فلسنا نريد شرًا ولا أذى بك، وإنما نحن خصمان مختلفان جار أحدنا على الآخر، فاقض بيننا بالعدل ولا تظلم في الحكم وأرشدنا إلى أحسن الطرق وأقوم السبل.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾

وقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون شاة وليس عندي سوى شاة واحدة فطمع فيها ليضمها إلى شياهه وقال لي: أعطني إياها وغلبني في الكلام.

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾

فقال داود: لقد ظلمك أخوك يوم سألك أن تعطيه شاتك إلى شياهه، وإن أكثر الشركاء ليظلم بعضهم بعضًا ويجور عليه ولا ينصفه إلا من آمن بالله وخاف مولاه، فهو عادل لا يجور ولا يظلم، وهذا الصنف قليل في الناس والكثير ظالم معتد، وتيقن داود أن الله ابتلاه بهذه الخصومة ليستدل بها على غيرها، عندها استغفر داود ربه وسجد لمولاه وعاد نادمًا مخبتًا منيبًا.

﴿٢٥﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾

فغفر الله لداود ذنبه وتاب عليه واصطفاه وقرَّبه وهيأ له حسن المأوى عنده في جنات النعيم.

﴿٢٦﴾ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾

يا داود، إن الله استخلفك في الأرض وولاك الحكم على الناس، فاحكم بين عباد الله بشرع الله، واعدل في الحكم، وإياك واتباع الهوى في الأحكام فتحابي القريب على البعيد والصديق على العدو، ولكن عليك بشرع الله، فإنك إن اتبعت الهوى مال بك عن الصراط المستقيم وحرفك عن الصواب، إن الضالين المضلين عن سبيل الله وطاعته وهداه لهم عذاب شديد موجع في نار جهنم؛ لأنهم نسوا لقاء الله وغفلوا عن يوم القيامة وأهملوا مراقبة الله، وفي هذه الآية توجيه للحكام أن يتقوا الله وأن يحكموا بشريعة الله، ولا يجوروا في أحكامهم فيصبحوا من أهل الضلال والغواية.

﴿٢٧﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

وما خلق الله السماء والأرض وما بينهما إلا لحكمة عظيمة وليس للهو واللعب والعبث كما يظن الكفار، فويل لهم على هذا الظن من النار؛ لأنهم ظنوا بالله ظن السوء وكفروا بآياته وكذبوا رسوله ﷺ.

﴿٢٨﴾ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾

كيف يجعل الله المؤمنين الصالحين كالفجار المفسدين في الأرض؟! أم كيف يجعل الله الأتقياء الأبرار كالفجار الأشرار؟! كلا لن يكون هذا، فهذه التسوية بينهم ليست عادلة، بل العدل أن يُثاب الأتقياء ويعاقب الأشقياء على حسب أعمالهم.

﴿٢٩﴾ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

هذا القرآن الذي نزل على الرسول ﷺ كتاب من عند الله مبارك في تلاوته وتدبره والعمل به، كثير النفع غزير الفائدة، أنزله الله ليتفكر العباد في آياته ويهتدوا ببيناته، وليتفكر أهل العقول السليمة والفطر القويمة في آيات هذا الكتاب المبارك الدال على كل خير.

﴿٣٠﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾

وأعطى الله داود ابنه سليمان تفضلاً منه عليه وإكرامًا وقرة عين، نعم العبد الصالح والنبي الكريم سليمان، إنه كان كثير العودة إلى الله والاستغفار والتوبة والإنابة.

﴿٣١﴾ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾

وتذكر يوم عُرضت الخيل الأصيلة المسومة على سليمان وقت العصر وهي قائمة على ثلاث قوائم رافعة الرابعة لرشاقتها ولطافتها واستعدادها للجري، فما زال مشغولاً بها حتى غابت الشمس في الأفق.

﴿٣٢﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾

فقال سليمان: إني قدمتُ حب الخيل والمال على الصلاة لربي حتى غابت الشمس وفات وقت الصلاة.

﴿٣٣﴾ ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾

فأمر سليمان أن تُعاد إليه الخيل التي عُرضت عليه ومرت، فأخذ يمسح سوقها وأعناقها وجعلها وقفًا في سبيل الله، وقيل: ذبحها وتصدق بلحومها.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾

ولقد امتحن الله سليمان فطرح على سريره شق ولد وُلد له من امرأته حين أقسم ليطوفن على نسائه، وكلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق ولد، ثم استغفر سليمان من نسيانه ذكر المشيئة وتاب إلى ربه.

﴿٣٥﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾

قال سليمان: ربِّ اغفر لي ذنبي وأعطني ملكًا عظيمًا خاصًا بي لا يشاركني فيه أحد ولا يكون لأحد من الناس بعدي ملك مثله، إنك واسع العطاء عظيم الإحسان كثير الجود.

﴿٣٦﴾ ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾

فاستجاب الله دعاء سليمان، وأعطاه ما طلب من الملك، وذلل الله له الريح يأمرها فتجري سريعة طيِّعة مع قوتها وشدتها وسرعتها حيث أراد من البلاد.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾

وذلل الله لسليمان الشياطين في ملكه، يسخرهم لما أراد من الأشغال، فمنهم البنَّاء للدور والقصور، والغواص في البحور.

﴿٣٨﴾ ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾

وصنف آخر من الشياطين وهم المردة العتاة مربوطون في الأغلال موثوقون في السلاسل.

﴿٣٩﴾ ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

هذا السلطان الكبير والملك الهائل والعطاء الخاص هبة من الله لسليمان، فأعط يا سليمان من شئت من الناس وامنع من شئت فلن تُحاسب على العطاء؛ لأن المعطي - سبحانه - كريم جواد.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾

وإن لسليمان عند الرحمن أحسن المراتب وأقرب المنازل في الجنان وفي دار الرضوان.

﴿٤١﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾

واذكر - أيها النبي - العبد الصالح والنبي الكريم أيوب الذي صبر على البلاء ودعا ربه بإخلاص وقال: يا ربِّ إن الشيطان كان سببًا في أذيتي ومرضي وأوصل الضرر إلى جسمي وأهلي ومالي.

﴿٤٢﴾ ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾

فأمر الله أيوب أن يضرب الأرض برجله فنبع منها ماء باردٌ زلالٌ؛ ليشرب منه أيوب ويغتسل، فأذهب الله ما به من داء وأبدله بعد السقم شفاء وأعقبه بعد الضراء السراء.

﴿٤٣﴾ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

فلما عافى الله بدنه وأزال سقمه أعطاه فأكرمه ووهب له أهله من نسائه وأبنائه وزاده مثلهم من البنين والحفدة والأسباط، كل هذا العطاء رحمة من الله ولطف بأيوب وجزاء له على صبره وإكرام له على رضاه بالقدر، وعظة وعبرة لأهل العقول السليمة والفطر القويمة؛ وليتيقنوا أن الفرج يأتي بعد الشدة وأن مع العسر يسرا.

﴿٤٤﴾ ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾

وأمر الله أيوب أن يأخذ بيده حزمةً من عذق النخل، وهي الشماريخ - فيضرب بها زوجته؛ ليبر قسمه السابق ولا يحنث؛ لأنه حلف بذلك لخطأ صدر عنها، إن الله امتحن أيوب فوجده صابرًا على البلاء مؤمنًا بالقضاء، نعم العبد هو في تقواه والعمل بطاعة مولاه، وكان عائدًا إلى الله بالتوبة والإنابة وتفويض الأمر لله.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾

واذكر - أيها النبي الرسول - عباد الله الصالحين وأنبياءه الصادقين: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فإنهم كانوا أصحاب قوة في الطاعة وبصيرة في الدين، فلهم قوة في إنكار المنكر وبصيرة في فعل المعروف.

﴿٤٦﴾ ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾

إن الله اجتباهم واختارهم باصطفاء عظيم، حيث جعل ذكر الآخرة نصب عيونهم وفي قلوبهم لا يفارقهم ذكرها، فهم مستعدون لها بالعمل الصالح.

٤٧ ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾

وإن هؤلاء الأنبياء الأبرار عند الله من أفضل الناس وأكرم البشر على الله، قد اصطفاهم للنبوة واختارهم للرسالة.

٤٨ ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾

واذكر - أيها النبي - عباد الله الأبرار والأنبياء الأخيار: إسماعيل واليسع وذا الكفل، فذكرهم أحسن الذكر، وسيرتهم أجمل السير، فكلٌ منهم كان خيّرًا بارًا رشيدًا، قد اختارهم الله لتبليغ الرسالات واختار لهم أحسن الصفات.

٤٩ ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾

هذا القرآن العظيم ذكر وشرف للرسول ﷺ ولأمته، وإن لمن اتقى ربه فعمل بطاعته وترك معصيته لأحسن معاد في جنات النعيم.

٥٠ ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾

هذه الجنات فيها الإقامة الدائمة والخلود الأبدي والنعيم السرمدي، أبوابها مفتحة لاستقبالهم والاحتفاء بهم.

٥١ ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾

والأبرار في الجنة متكئون فيها على الأرائك المريحة لزيادة النعيم، يطلبون في الجنة ما تشتهيه أنفسهم من ألذ الطعام وأحسن الشراب وأحلى الفاكهة.

٥٢ ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾

وعند الأبرار في الجنة نساء جميلات فائقات الحسن، قاصرات أبصارهن على أزواجهن، متساويات في السن، جمعن بين العفاف والحسن.

٥٣ ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾

ونعيم الأبرار هذا قد وُعدوا به وهم في الدنيا، والله منجز وعده، فهذا ما ينتظركم - أيها المتقون - عند الله يوم القيامة.

٥٤ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾

وهذا العطاء المبارك الكريم لأولياء الله الأبرار رزق من عند الله لا ينتهي ولا ينقطع ولا ينقص.

٥٥ ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾

هذا النعيم هو للأتقياء، أما المعتدون المتجاوزون للحدود في الكفر والذنوب فلهم شر معاد وأسوأ منقلب.

٥٦ ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

ولهم عند الله عذاب النار، يُحرقون فيها فبئس الفراش النار، تصهرهم من فوقهم ومن تحتهم.

٥٧ ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾

هذا العذاب المؤلم الموجع سوف يذوقونه، فهو ماءٌ شديد الحرارة، ومعه صديد وقيح يسيل من أجسام الكفار في النار يشربونه كرهًا.

٥٨ ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾

وللفجار في النار عذاب آخر من هذا النوع، وهو أشكال وأصناف متعددة من النكال والقيد والأغلال وأنواع المكاره.

٥٩ ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾

وعندما يزدحم الفجار على أبواب النار تسب كل طائفة الأخرى، فيقول بعضهم لبعض: هذه جماعة من أهل النار تدخل معكم وتزاحمكم، فيردون عليهم لا مرحبًا بهم ولا تتسع لهم دورهم ولا تحميهم منازلهم، إنهم سوف يذوقون حرَّ جهنم ويصلون سعيرها كما ذقناها.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾

قالت طائفة الأتباع للسادة الطغاة: بل أنتم لا مرحبًا بقدومكم ولا كرامة لكم، أنتم كنتم سببًا لإغوائنا وصدنا عن الهداية، فبئس دار الاستقرار والسكنى نار جهنم.

﴿٦١﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾

فقال السادة الطغاة للأتباع: ربنا من كان سببًا في إضلالنا وصرفنا عن الحق فضاعف له العقوبة في نار جهنم، وفيه تبرأ أهل الضلال من الأتباع والمتبوعين من بعض يوم العرض.

﴿٦٢﴾ ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾

وقال السادة الطغاة: لماذا لا نرى معنا في نار جهنم رجالاً كنا نحسبهم في الدنيا من الأشرار الفجار؟

﴿٦٣﴾ ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾

هل كنا مخطئين في السخرية منهم وازدرائهم، أم أن هؤلاء الفجار معنا في النار لكن لم تقع عليهم الأبصار؟

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾

إن هذا الذي يحصل من الخصومة والجدل بين أهل النار حق حاصل لا محالة.

﴿٦٥﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: إنما أُرسلتُ مخوِّفًا لكم بين يدي عذاب شديد وليس هناك إله إلا الله الواحد الأحد لا شريك له ،فهو الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، الذي قهر غيره وغلب سواه فلا تنبغي العبودية إلا له.

﴿٦٦﴾ ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾

خالق السموات والأرض وما بينهما مالكهما ومدبر شؤونهما، العزيز في ملكه الذي أعز من اتقاه وأذل من عاداه، الغفار لذنوب من تاب، والذي ستر خطايا من أناب.

﴿٦٧﴾ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: إن هذا الكتاب العظيم هو القرآن الكريم خبر عظيم الشأن جليل القدر.

﴿٦٨﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾

أنتم - أيها الكفار - غافلون عن القرآن، معرضون عن الإيمان به والعمل بما فيه.

﴿٦٩﴾ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

ما كان عندي علم بما جرى بين الملائكة من اختصام واختلاف في خلق آدم، لكن الله أطلعني على ذلك بالوحي المنزل عليّ.

﴿٧٠﴾ ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

وإنما أوحى الله إليَّ بعضًا من علم الغيب وعلَّمني ما لم أكن أعلم بسبب أنني نذير لكم من عذاب الله، ومبيّنٌ لكم دين الله.

﴿٧١﴾ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم قال ربك للملائكة: إني خالق آدم من طين.

﴿٧٢﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾

فإذا سويت أعضاء آدم وقوَّمتُ جسمه وحسَّنتُ خلقه ونفختُ فيه الروح وصار حيًا، فاسجدوا - أيها الملائكة - سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة وتعظيم، فالعبادة لا تكون إلا للرحمن الرحيم، وقد جاء الإسلام بتحريم السجود لغير الله وحده.

﴿٧٣﴾ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

فسجد الملائكة لآدم طاعةً لله وتكريمًا لآدم، ولم يتخلف من الملائكة أحد.

﴿٧٤﴾ ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

لكن إبليس أبى أن يسجد لآدم تكبرًا وعنادًا وأنفةً وحسدًا، وسبق في علم الله أنه من الكافرين العاصين لأمر الله.

﴿٧٥﴾ ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

قال الله لإبليس: ما الذي حملك على ترك السجود لآدم الذي خلقته بيدي وشرّفتهُ بذلك؟ هل تكبرت على آدم أم كنت من المتكبرين على أمر الله؟ وفي الآية إثبات صفة اليدين لله - سبحانه - على وجه يليق بجلاله وكماله تقدست أسماؤه.

﴿٧٦﴾ ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

فردَّ إبليس - عاصيًا أمر ربّه - بقوله: إن ما منعني من السجود لآدم هو أنني أفضل وأشرف منه، فأصلي أكرم من أصله؛ حيث خلقتني من نار وخلقت آدم من طين، والنار خير من الطين.

﴿٧٧﴾ ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾

فقال الله لإبليس: اخرج من الجنة فإنك مطرود من الرحمة محروم من الجنة.

﴿٧٨﴾ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

وإن عليك - يا إبليس - لعنات الله المتتابعة إلى يوم القيامة؛ فتبقى مطرودًا مرجومًا.

﴿٧٩﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

قال إبليس لربه: يا ربِّ، لا تميتني وأخِّر وفاتي حتى يخرج الناس من قبورهم؛ لأفتنهم.

﴿٨٠﴾ ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾

قال الله لإبليس: فإني قد أخَّرتُ أجلك وهذا التأخير ابتلاء من الله لعباده بإبليس؛ ليظهر الصادق من الكاذب.

﴿٨١﴾ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾

وتأخير إبليس إلى وقت محدد هو وقت النفخة الأولى عندما يموت الأحياء.

﴿٨٢﴾ ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

قال إبليس: فأقسم بعزتك يا رب وعظمتك لأصرفن الناس جميعًا عن طاعتك ولأضلنهم عن سبيلك.

﴿٨٣﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

لكن من أخلصته منهم للطاعة وحفظته من الغواية وعصمته بالهداية فلن أستطيع إضلاله.

﴿٨٤﴾ ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾

قال الله: فالحق أقوله، وقولي الحق، ووعدي الحق، ولا أقول إلا الحق.

﴿٨٥﴾ ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

ليملأن الله نار جهنم من إبليس ومن ذريته ومن أغواهم من بني آدم أجمعين.

﴿٨٦﴾ ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: لا أطلبُ منكم أجرةً أو ثوابًا على تبليغ الرسالة ونصحي لكم، ولا أدعي أمرًا ليس لي، ولا أتكلف ما لا أستطيع، بل أفعل ما أُومر به من ربي، ولا آتي بشيء من عندي تكلفًا وافتراءً.

﴿٨٧﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾

ما هذا القرآن العظيم إلا ذكر وعظة للإنس والجن، يدلهم على ما فيه نجاتهم ويحذرهم من أسباب الهلاك.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾

وسوف تعلمون - أيها الكفار - علو هذا القرآن وصدقه وصحة ما جاء به إذا انتصر الإسلام وهوت الأصنام، وسوف تعلمون ذلك أيضًا حين يحل بكم العقاب، وينالكم العذاب يوم الحساب.

مكية

سورة الزمر

ترتيبها ٣٩ | آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

تنزيل القرآن الحكيم إنما هو وحي من الله تكلم به - سبحانه -، العزيز في ملكه يعز من أطاعه، ويذل من عصاه، الحكيم في خلقه وصنعه، وفي تدبيره وشرعه.

﴿٢﴾ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾

إن الله أنزل إليك القرآن - أيها النبي - بالحق والعدل، فوحِّد ربك وأخلص له العبادة ولا تشرك به غيره.

﴿٣﴾ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾

ألا لله وحده العبادة الخالصة من الشرك، السالمة من الرياء والسمعة، والذين يشركون مع الله غيره، الذين عبدوا من دونه أولياء يقولون: إنهم لا يعبدون تلك الآلهة المزعومة مع الله إلا من أجل أنها سوف تشفع لهم عند الله وتزيدهم منه قربًا؛ فكذبوا في دعواهم وافتروا على الله فيما قالوا؛ فالعبادة والشفاعة لله وحده، إن الله سوف يفصل بين المؤمنين والكفار فيما اختلفوا فيه من العبادة، فيثيب المؤمن المخلص الذي عبد الله وحده ولم يشرك به شيئًا؛ ويعاقب المشرك الذي اتخذ مع الله آلهة أخرى، إن الله لا يرشد إلى الصواب ولا يوفق للهدى من كان كاذبًا في قوله وفعله، كافرًا بآيات ربه، فالمفتري الكافر محروم من الهداية.

﴿٤﴾ ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

لو أراد الله أن يتخذ ولدًا ويكون له ابنٌ من عباده لاختار هو ما أراد لا ما نسب إليه العباد، ولكن تعالى الله وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، القهار الذي غلب غيره وأذل من حاربه وخذل من عاداه؛ فكل شيء مقهور بعظمته خاضع لسلطانه.

﴿٥﴾ ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾

خلق الله السموات والأرض وما بينهما وما فيهما بالحق والعدل؛ لحِكَم عظيمة، ولم يخلقهما لهوًا ولا عبثًا - تنزه عن ذلك وتقدس -، يجيء الله بالليل ويذهب بالنهار، ويجيء بالنهار ويذهب بالليل بنقص وقت هذا من وقت ذاك، ويأتي

كلٌ في وقته لا يسبق أحدهما الآخر، وذلل الله الشمس والقمر، فجعل كلاً منهما يسعى في مداره لا يتعداه بانتظام وحساب حتى تقوم الساعة، فلا الشمس يحق لها أن تدرك القمر، كل ينزل منازله بنظام، ألا إن الله الذي أحسن في خلقه، وأبدع في صنعه، وتفضل على عباده وسخر ما شاء من خلقه هو العزيز في ملكه، قهر من حاربه، وغلب من غالبه، الغفار لذنوب من تاب.

٦ ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

خلقكم الله - أيها العباد - من أبيكم آدم، وخلق من آدم زوجه حواء، وخلق لكم من الأنعام ثمانية أصناف ذكرًا وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز، يخلقكم أجنة في بطون الأمهات حالاً بعد حال، نطفة فعلقة فمضغة وهكذا في ظلمة البطن والرحم والمشيمة، هذا الذي خلق هذا الخلق وأحسن فيما خلق هو الله ربكم الواحد الأحد لا إله إلا هو، المستحق للعبادة دون سواه، فلماذا تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره وهو الخالق الرازق وغيره لم يخلق ولم يرزق؟!

٧ ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

إن تكفروا بالله - أيها العباد - وتكذبوا رسله وتعصوا أمره فالله غني عنكم لا تنفعه طاعة الطائع ولا تضره معصية العاصي، وأنتم الفقراء إلى فضله ورحمته، والله لا يرضى لعباده الكفر ولا يأمرهم به، وإنما يرضى الله لعباده شكر نعمته بعبادته وإخلاص الطاعة له، ولا تحمل نفس ذنب نفسٍ أخرى، فكل نفس لها برها وعليها فجورها، ثم إلى الله معادكم - أيها الناس - للحساب عند الله يوم القيامة، فيخبركم بما فعلتم ويجازيكم بما صنعتم، إنه خبير بأسرار السرائر، ومكنونات الضمائر، وما تخفيه الصدور.

٨ ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾

ومن طبيعة الإنسان أنه إذا أصابته شدة من مرض أو فقر أو بلاء لجأ إلى الله وسأله وتذلل له واستغاث به، فإذا أجابه الله وفرّج عنه وكشف ضره وأزال همه وأعطاه من فضله نسي معروف ربه وإحسانه، وتمرد وعتا وأشرك بالله؛ ليسعى في إغواء غيره وصرفه عن الهداية، قل - أيها النبي - لهذا الصنف الجاحد المعاند: تمتع في حياتك الفانية بكفرك، فإن مصيرك إلى جهنم مخلدًا فيها.

٩ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

هل هذا الجاحد المعاند أفضل أم المخبت لربه المطيع لمولاه، الذي قطع ساعات الليل صلاة وتلاوة وذكرًا في قيام وسجود، يخشى عقاب الله يوم القيامة، ويأمل الرحمة من الله، قد جمع بين الخوف والرجاء؟ قل - أيها النبي -: هل يستوي أهل العلم النافع الذين أوصلهم علمهم إلى طاعة الله، وحسن عبادته، والتهجد له ومن ليس عنده علم نافع فهو في جهله صريع لشهواته غافل في لذاته، لا يستويان، إنما يتفكر ويميّز بين الصنفين أهل العقول السليمة والفطر القويمة.

١٠ ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

قل - أيها الرسول - لعباد الله الأبرار المخلصين: اتقوا عذاب الله بالعمل بطاعته وترك معصيته، لمن أحسن في عبادة الله واتباع رسوله والتزود بالصالحات حسنة، وهي جنات النعيم مع حسنة الدنيا وصلاح الحال، وطيب العيش،

وسعة الرزق والثناء الحسن والقبول عند الناس، وأرض الله متسعة لمن أراد عبادة ربه، فلا يبقى في أرض لا يتمكن فيها من عبادة مولاه بل يهاجر إلى أخرى، إنما يعطي الله يوم القيامة الصابرين عطاء بغير حساب لكثرته، وغيرهم يعطى بحساب، وما ذاك إلا لعظم مرتبة الصبر.

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾

قل - أيها النبي - للناس: إن الله أمرني وأتباعي أن أخلص العبادة له ولا أُشرك به شيئًا، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا على سنة رسوله ﷺ.

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

وقل - أيها النبي -: إن الله أمرني أن أكون أول من أسلم من أمتي فأنقاد لعبادته وأستسلم لأمره وأفوِّض الأمر إليه وأتوكل عليه.

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

قل - أيها النبي - للناس: إني أخشى إذا عصيتُ الله بترك ما أمرني به أو فعل ما نهاني عنه أن يعذبني في ذاك اليوم الذي عظم هوله، واشتد بأسه وهو يوم القيامة.

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾

قل - أيها النبي -: إنني أعبد الله ربي وحده لا إله إلا هو، ولا يستحق العبادة سواه، قد أخلصت له طاعتي، ولم أشرك به غيره في عبادتي.

﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾

فاعبدوا - أيها الكفار - ما أردتم من أوثان وأصنام؛ فضرر ذلك عليكم، ولن يلحقني من ذلك ضرر ولا أذى، وأخبرهم - أيها النبي - أن الخاسرين حقيقة هم الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم الحساب إذا نزل بهم العذاب وحل بهم العقاب؛ لأنهم كانوا سببًا في إغواء أهلهم وإضلالهم، ألا إن خسران الكفار يوم القيامة هو الخسران الذي ما بعده خسران، فإنه هلاك محقق وخلود في نار تحرق.

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾

للكفار في النار قطع من العذاب تغطيهم وتظلهم، كأنها ظلل فوق رؤوسهم مرفوعة، ويفترشون تحتهم قطعًا من النار أيضًا، ذلك العذاب الشديد يذكره الله تخويفًا لعباده ليحذروه بطاعته وترك معصيته، فيا عباد الله: اتقوا الله بالإيمان به واتباع رسوله وامتثال أمره واجتناب نهيه.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾

والذين هجروا طاعة الشيطان وأتباعه وأعوانه واجتنبوا الشرك بالله وعادوا إلى الله بإخلاص الطاعة له وحسن عبادته لهم البشرى في الحياة الدنيا بالقبول عند الخلق، والمحبة من الناس والثناء الحسن والتوفيق للطاعة والسداد في كل الأمور، ولهم في الآخرة الرضوان الأكبر والفوز الأعظم والنعيم الدائم، فبشر - أيها النبي - عباد الله الصالحين بهذا الفضل.

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

هؤلاء العباد الأبرار هم الذين ينصتون للقول الرشيد من الكتاب والسنة والعلم النافع فيتبعون أرشده، هؤلاء هم الذين وفَّقهم الله للطريق القويم وألهمهم رشدهم وثبتهم على الهدى، وأولئك هم أصحاب العقول الراجحة والفطر القويمة.

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾

أفمن كتب الله عليه العذاب فارتضى الغواية وجانب الهداية فهل تستطيع - أيها النبي - أن تهديه وقد آثر الكفر؟ أم هل تستطيع أن تنقذه من عذاب النار؟ لن تستطيع؛ لأن لك هداية الإرشاد؛ أما هداية التوفيق فلله وحده.

﴿٢٠﴾ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾

لكن الأتقياء البررة الذين عملوا بطاعة الله وتركوا معاصيه لهم في الجنة غرف مرفوعة البناء بعضها فوق بعض في جمال وبهاء، تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، وهذا وعد من الله لأوليائه لابد من وقوعه، والله لا يخلف وعدًا وَعَدَهُ سبحانه.

﴿٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

ألم تر كيف أنزل الله من الغمام ماءً مباركًا فأدخله في مسارب الأرض، وجعل منه العيون المتدفقة والأنهار الجارية، ثم ينبت بهذا الماء زرعًا متعدد الألوان والأصناف، ثم يجف هذا الزرع بعد الخضرة والنضارة فيصبح يابسًا ذاويًا مصفرًا، ثم يصير هشيمًا مكسرًا مفتتًا، إن في هذه المخلوقات التي قدرها الله وأبدعها لعبرةً عظيمةً وموعظة لأصحاب العقول السليمة والفطر القويمة.

﴿٢٢﴾ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

أفمن وسع الله صدره فانشرح بقبول الإسلام والعمل به واتباع هدي النبي ﷺ فهو على بصيرة من أمره، وهدى من ربه قد عرف الحق فعمل به وعرف الباطل فاجتنبه كمن ليس كذلك؟ لا يستويان؛ فالمهتدي مشروح الصدر عامر الفؤاد بالطاعة على يقين ورشدٍ وهدى، والضال المنحرف الزائغ في ضلال وغي وحيرة، فالهلاك كله لقَاسي القلب المعرض عن ذكر الله الصاد عن سبيله؛ فهذا الصنف في بُعد عن الرشد لا يوفق لصواب ولا يُسدد لخير.

﴿٢٣﴾ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

الله - سبحانه وتعالى - هو الذي أنزل على رسوله ﷺ أحسن الحديث لفظًا ومعنىً وبركةً ورشدًا، وهو القرآن الكريم، يشبه بعضه بعضًا في الحسن والإتقان والحكمة والرشد وعدم التضاد والاختلاف، تُثنى فيه الأخبار والبراهين والأدلة والأحكام، تقشعر جلود الأتقياء عند سماعه لما فيه من رهبة ووعيد وتخويف وإنذار، ثم تلين جلود هؤلاء الأبرار وقلوبهم لما في القرآن من بشرى ووعد حسن وترغيب في الخير وذكر للرحمة، ذلك الذي يحصل للأتقياء البررة من التأثير هو هداية من الله لهم، فإن الله يهدي من أراد من العباد، ومن أراد الله صرفه عن الحق والإيمان فلن يهديه أحد غير الله فيبقى في ضلاله وغيِّه.

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

أفمن يُرمى به في نار جهنم على وجهه قد غُلَّت يداه خلف ظهره فلا يحتمي من النار إلا بوجهه لتكذيبه وكفره، هل هذا الضال خير وأفضل أمَّن فاز برضوان الله وبجنته لإيمانه وصلاحه؟ لا يستويان، وقيل ذاك اليوم للكفار الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والذنوب: ذوقوا نتيجة عملكم السيء في الحياة الدنيا من الإجرام والآثام.

﴿٢٥﴾ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾

كذبت القرون السابقة كمن كفر من أمتك - أيها النبي -، فأنزل الله عليهم العذاب من حيث لا يتوقعون نزوله، فأتاهم بغتة على غفلة منهم.

﴿٢٦﴾ ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾

فأذاق الله الأمم الكافرة المكذبة عذابه الشديد مع الهوان والإذلال في حياتهم الدنيا، وهيأ الله لهم في نار جهنم أفظع العذاب وأشنع العقاب، ولو كان هؤلاء الكفار يعلمون أن ما نزل بهم من العذاب إنما هو بسبب تكذيبهم لآمنوا وصدقوا، ولكن غلب عليهم الجهل والهوى فضلوا.

﴿٢٧﴾ ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

ولقد ضرب الله للكفار في كتابه العظيم من كل مثل من أمثال الأمم السابقة عظةً واعتبارًا لعلَّهم يرتدعون عن كفرهم ومعاصيهم.

﴿٢٨﴾ ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

وأنزل الله كتابه العظيم بلغة العرب بيِّنة الألفاظ سهلة المعاني لا تعقيد فيها ولا غرابة؛ لعلّهم إذا قرؤوا القرآن العربي الواضح انتفعوا به فاتقوا ربهم بعمل الطاعة وترك المعصية.

﴿٢٩﴾ ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ضرب الله مثلاً للمؤمن الموحد والكافر المشرك بعبد مملوك لشركاء مختصمين، فهو في حَيرة من إرضاء كل واحد منهم، فرضى هذا يغضب ذاك؛ وعبد آخر خالص لسيده فهو يسعى فيما يرضيه، قد جمع همّه وشمله في العمل له، هل يستوي هذا وهذا؟ لا يستويان، فهذا مثل المشرك المتذبذب المحتار، ومثل المؤمن المطمئن المتيقن، فلله الثناء الجميل والشكر الجزيل على بيانه الأمثال لعباده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق فيهتدون به، وإنما هم جهلاء ضلاّل.

﴿٣٠﴾ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾

إنك - أيها النبي - ميت لا محالة ولست خالدًا، وكذلك أعداؤك ميتون وليسوا بخالدين، فأنتم تشتركون في عدم الخلود في الدنيا فلماذا يتربص بك الكفار الموت وهو آتٍ على الجميع.

﴿٣١﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾

ثم إنكم - أيها العباد - يوم المعاد مختلفون عند الله، فأهل إيمان وصلاح، وأهل كفر وفساد، وسوف يحكم الله في ذلك اليوم بين عباده بالعدل فينجي الأتقياء ويعذب الأشقياء.

﴿٣٢﴾ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾

ليس في العالم أحد أظلم ممن اختلق الكذب على الله بأن ادعى أن لله شريكًا أو ولدًا أو زوجة أو شبه الله بأحد من خلقه أو وصفه بغير ما وُصف - سبحانه - في الكتاب والسنة، وكذلك من ادعى أن الله أنزل عليه وحيًا ولم يُنزل عليه، ولا أحد أظلم ممن كذّب برسالة الرسول ﷺ ورد ما جاء به، أليس في نار جهنم مأوى وسكنى للكفار؟ بلى فهي دارهم وقرارهم.

﴿٣٣﴾ ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

والذي أتى بالصدق من الله وهو الوحي المبارك كان صادقًا في قوله وعمله وحاله، وهم الرسل وأتباعهم إلى يوم القيامة، وكذلك من صدَّق بهذا الوحي واتّبعه حق الاتباع اعتقادًا وقولاً وعملاً أولئك هم الأتقياء البررة، وإمام الصادقين وسيدهم هو رسول الهدى النبي المصطفى محمد ﷺ وكذلك أصحابه الأبرار ومن تبعهم من الأخيار إلى يوم القيامة.

﴿٣٤﴾ ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لهؤلاء الأبرار الصادقين ما أرادوا عند الله من أنواع المسرات وأصناف اللذائذ والمشتهيات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا جزاء من أحسن في عبادة ربه وأخلص له الطاعة، فجمع بين إفراد الله بالعبودية وتجريد المتابعة لرسوله ﷺ.

﴿٣٥﴾ ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

ليكفِّر الله عن هؤلاء الأتقياء أسوأ الذي فعلوه في الدنيا من الذنوب والخطايا لإيمانهم وتوبتهم وفعلهم الحسنات بعد السيئات، ويكرمهم الله على عبادتهم بأجلِّ الثواب وأحسنه؛ بحيث يجعل الأجر على مستوى أفضل عمل عملوه، ثم يلحق بقية الأعمال بهذا العمل.

﴿٣٦﴾ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

أليس الله بحافظ رسوله الكريم محمدًا ﷺ من أذى الكفار وشرهم ومكرهم فلا يصله منهم أذى؟ بلى سوف يحفظه ربه وينصره مولاه في الدنيا والآخرة، ويدفع عنه الأذى ويرد عنه السوء وينصره نصرًا عزيزًا، ويكبت أعداءه ويخذل خصومه، ويخوفك الكفار - أيها النبي - بآلهتهم المزعومة التي اعتقدوا أنها سوف تضرك؛ كذبًا منهم وزورًا، ومن يصرف الله قلبه عن الهداية ويكتب عليه الغواية فليس له هادٍ غير الله يهديه لطريق الرشاد.

﴿٣٧﴾ ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾

ومن يرشده الله إلى الهدى ويدله على الصراط المستقيم فيتبع الكتاب والسنة ويحكم الشرع في نفسه ظاهرًا وباطنًا فلا يستطيع أحد صرفه عن الهدى، أليس الله بعزيز في ملكه وأخذه لأعدائه، فهو يعز من والاه ويذل من عاداه، من حاربه خذله ومن غالبه غلبه، وهو - سبحانه - المنتقم من أعدائه وممن خالف أمره بإنزال العقوبة بهم.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

ولئن سألت المشركين - أيها النبي -: من خلق هذه السموات والأرض؟ فسيجيبونك بأن الذي خلقهن هو الله وحده، فكيف يعبدون معه آلهة أخرى؟ فاسأل هؤلاء المشركين: هل تدفع عني هذه الآلهة التي عبدتموها من دون الله شرًا قدره الله عليّ، أو ترفع عني ضرًا نزل بي؟ وهل تستطيع أن تمنع خيرًا كتبه الله لي أو تحجب رحمةً قضاها الله لي؟ فسوف يجيبون بقولهم: لا تستطيع ذلك، قل لهم: الله يكفيني وهو حسبي وحده، عليه يعتمد كل موحِّد صادق مخلص في جلب المصالح ودفع المضار ونيل الخير وصرف الشر، فهو الذي بيده مقاليد الأمور ويملك النفع والضر وحده، إليه فوّضتُ أمري وعليه توكلتُ فهو حسبي ونعم الوكيل.

﴿٣٩﴾ ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

قل - أيها النبي للكفار -: اعملوا على طريقتكم التي أنتم عليها من الكفر والتكذيب، فسوف أعمل على ما هداني الله إليه من إخلاص العبادة له وإفراده بالطاعة واعتقاد الحق وقوله والعمل به، فسوف يظهر لكم من الهالك ومن الناجي، ومن الصادق ومن الكاذب إذا حكم الله بيني وبينكم.

﴿٤٠﴾ ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

فسوف تعلمون من يحل به عقاب من الله يذله ويهينه، وينزل به في نار جهنم عذاب موجع أبدي لا ينقطع عنه ولا يخفف منه.

﴿٤١﴾ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

إن الله أنزل عليك القرآن بالصدق والعدل هدايةً للناس وتبيانًا لكل شيء، فمن انتفع بالقرآن واتبعه وعمل بما فيه وتحاكم إليه فإنما أحسن إلى نفسه ونفع ذلك عائد عليه، ومن آثر الغواية وترك الهداية فضرر ذلك عائد عليه، وعقوبته واقعة به، فالله لا تنفعه طاعة طائع ولا تضره معصية عاصٍ، وما أنت - أيها النبي - بوكيل على الناس تحصي أعمالهم وتحاسبهم على أفعالهم وتجبرهم على الهداية، فما عليك إلا تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله بالحكمة.

﴿٤٢﴾ ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

الله وحده هو الذي يقبض الأرواح وقت موتها، وهذه هي الموتة الكبرى عند اكتمال العمر وانقضاء الأجل، والنفس التي لم تمت الموتة الكبرى يمسكها الله عندما تنام وهي الموتة الصغرى، فيحبس - سبحانه - النفس التي ماتت الموتة الكبرى ويرسل التي ماتت الموتة الصغرى حتى اكتمال الأجل، فتعود إلى الجسم بعد النوم، إن في قبض روح الميت، وإمساك روح النائم وإرسالها، لبراهين ظاهرة على قدرة الله وحكمته لمن تأمل واعتبر.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾

أم اتخذ الكفار شفعاء لهم عند الله في رفع حوائجهم والله لم يرض بذلك ولم يأذن؟ قل لهم - أيها النبي -: كيف تتخذون هؤلاء الشفعاء وهم لا يملكون جلب نفع ولا دفع ضر، وهذه الآلهة المزعومة لا تشعر بالعبادة فهي جامدة لا عقول لها.

﴿٤٤﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: إن الذي يملك الشفاعة ويأذن بها هو الله وحده فله ملك السموات والأرض وما بينهما، وما فيهما فالأمر أمره، والحكم حكمه، والخلق عبيده، وهو الخالق المدبر المتصرف في الكون، فلا تُطلب الشفاعة إلا ممن يملكها سبحانه، فالواجب إفراده بالعبادة وإخلاص الطاعة له، أما الآلهة المدّعَاة فلا تنفع ولا تضر، وإلى الله المعاد يوم القيامة؛ ليوفي كلاً بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

وإذا أُفرد الله وحده بالذكر ولم يشرك معه غيره كرهت ذلك قلوب الكفار، ونفرت منه نفوس الفجار الذين يكذبون بيوم الدين، وإذا ذُكر من دون الله من معبوداتهم الباطلة فرحوا بذلك واستبشروا؛ لأن الشيطان زين لهم الشرك وكَرَّه إليهم التوحيد، وأصبح الحق باطلاً والباطل حقًا.

﴿٤٦﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

قل: اللهم يا خالق السموات والأرض ويا منشئهما ويا مبدعهما على غير مثال سابق، يا من يعلم ما غاب عن العيون وما تشاهده الأبصار، أنت تفصل بين الخليقة يوم المعاد فيما اختلفوا فيه من الربوبية والألوهية والرسالة وغير ذلك من مسائل الإيمان، أسألك ربي أن تهديني لما اختلف فيه الناس، ودلني على الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. وكان ﷺ يدعو بهذا الدعاء كثيرًا.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾

ولو أن للكفار كل ما في الأرض من أموال وخزائن ومدخرات وأضعافًا مضاعفة معه لجعلوه فدية لهم يوم الدين لينجوا من عذاب رب العالمين، ولو فعلوا ذلك وبذلوا ما عندهم لرُد عليهم ولم يُقبل منهم ولا يُدفع عنهم من العذاب شيء، وظهر لهم يوم القيامة من عذاب الله وأخذه ما لم يكن يدور في حسبانهم ولا يخطر ببالهم من شدة الأهوال والأنكال والأغلال.

﴿٤٨﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

وظهر للكفار يوم القيامة عقاب آثامهم التي فعلوها حيث أشركوا بالله، ونسبوا إليه الصاحبة والولد، وألحدوا في أسمائه وصفاته، وكذبوا رسله وحاربوا أولياءه، وأحاط بهم من كل جهة عذاب مؤلم موجع؛ جزاءً لهم على سخريتهم من شرع رب العالمين، واستهزائهم بالدين.

﴿٤٩﴾ ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

فإذا أصاب الإنسان بلاء ومحنة لجأ إلى ربه وأخلص له الدعاء وسأله الفرج من هذه الشدة، فإذا أزال الله عنه ما أغمه وكشف عنه ما أهمّه وأنعم عليه بالرخاء بعد الشدة واليسر بعد العسر قال هذا الإنسان - معاندًا مكابرًا -: إن الذي أُعطيتُه من الرخاء واليسر إنما هو لأجل علم الله بأنني أهلٌ لذلك ومستحق له، أو على علم مني بوسائل تحصيله والصحيح أن ذلك فتنة وابتلاء من الله يمتحن بها عباده؛ ليظهر الشاكر من الكافر، والصادق من الكاذب، ولكن أكثر الناس لغفلتهم وجهلهم وضلالهم لا يدركون هذه الحِكَم ولا يعلمون هذه الأسرار.

٥٠ ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

قد سبق للقرون الماضية أن قالوا مثل هذه المقالة الخاطئة التي قالها الكفار، فما دفع عنهم عذابَ اللهِ ما عندهم من الأولاد وما جمعوه من الأموال.

٥١ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

فأصاب أصحاب هذه المقالة الآثمة من القرون الماضية عاقبة معاصيهم وجزاء ذنوبهم، فلحقهم الهوان والذل في الدنيا، وفي الآخرة العذاب الأليم في النار، والكفار من هذه الأمة الذين ظلموا أنفسهم بالشرك سينالهم أيضًا عاقبة ذنوبهم وجزاء ما فعلوه من السيئات كما حصل للأمم السابقة، ولن يفوتوا الله، ولن يعجز الله عن عذابهم، بل هم في قبضته وتحت قهره.

٥٢ ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أولم يعلم هؤلاء الكفار أن الله يعطي الدنيا من مال وولد وجاه وسلطان من أراد من عباده فيوسع له في رزقه، ويضيق على من أراد فيكون فقيرًا مملقًا، فلا يدل العطاء والرزق على حسن عمل ذاك وصلاحه، ولا يدل التضييق والفقر على فساد عمل هذا وفجوره، إنما هو ابتلاء واختبار من الله لعباده، إن في سعة الرزق وضيقه على العباد لبراهين ساطعة على قدرة الله وحسن تدبيره لعباده وحكمته في تصريف خلقه، وهذه البراهين ينتفع بها من صدَّق بكتاب الله واتبع رسوله ﷺ.

٥٣ ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قل - أيها النبي - لعباد الله الذين أكثروا من الذنوب وأسرفوا في المعاصي: لا تيأسوا - أيها العباد - من رحمة الله لكثرة آثامكم وعظيم ذنوبكم، فإن رحمة الله واسعة، وجوده عظيم، وهو - سبحانه - يغفر كل الذنوب ويعفو عن جميع السيئات لمن تاب إليه وندم على ما فعل، بل يفرح الله بتوبته ويبدِّل سيئاته حسنات، ولو لم تكن التوبة أحبّ شيء إليه ما ابتلى بالذنب أعز الناس عليه وهو آدم عليه السلام؛ فالله كثير الغفران للعبد مهما اقترف من الآثام، توّاب يعود بفضله وستره وعفوه على عباده، رحيم بهم يتلطف إليهم بإيصال أنواع المحاب بأحسن الأسباب، ويصرف عنهم المكاره، فحري بالمسلم أن يفرح بهذه الآية وأن يحسن الظن بربه، ولا ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمة مولاه، بل مهما فعل من الذنوب واقترف من المعاصي فليتب وليعد إلى ربه وليستغفر إلهه وخالقه، فهنيئًا للتائبين وقرة عين للمنيبين بهذا الفضل العظيم والثواب الكريم، ويا بشرى للموحدين بهذا النداء من الرحمن الرحيم، ويا سعادة العباد بهذا الكرم والجود من الواحد الأحد؛ فنسأله - سبحانه - بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتوب علينا وأن يغفر ذنوبنا، وهذه أرجى آية في القرآن عند الكثير.

٥٤ ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

وعودوا إلى ربكم - أيها العباد - بالاستغفار والتوبة والندم وانقادوا لأمره واخضعوا لحكمه قبل أن يقع بكم عذابه ويدرككم عقابه ولا يدفع عنكم أحد بأس الله فلا راد لقضائه جل في علاه.

٥٥ ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

واتبعوا - أيها العباد - أحسن ما أنزله الله من الوحي على رسوله المعصوم ﷺ وهو القرآن العظيم، وكله حسن؛ والسنة النبوية المطهرة، وكلها حسنة؛ وذلك بفعل ما أمر الله به ورضيه، وترك ما نهى الله عنه وكرهه، وهذا الامتثال يكون في الحياة الدنيا بإخلاص العمل لله تعالى وحسن المتابعة لرسوله ﷺ قبل أن يحل بمن أعرض وعصى وأبى عذاب الله فجأة وهو لا يشعر بوقت مجيئه، بل يأخذه على غرة وهو في غفلة عن شرع ربه وسنة نبيه ﷺ.

٥٦ ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾

واتقوا الله وأطيعوه واتبعوا رسوله ﷺ حتى لا تندم النفس المقصرة على ذنوبها، وتأسف على ما تصرم من عمرها وتقول: يا حسرتي على ما أهملتُ من أمر الله، وضيعتُ من العمل الصالح، وغفلت عن الواجبات وتناولت المحرمات

في وقت لا ينفع فيه الندم ويجدي فيه التحسر، وتقول هذه النفس وقد كنت في الحياة الدنيا أسخر من شرع الله وكتابه وسنة رسوله ﷺ وأستهزئ بالدين وأهله لاستيلاء الغفلة على عقلي والانهماك في الذنوب، ومطاوعة الشيطان، وغلبة الهوى والانقياد للنفس الأمارة بالسوء.

٥٧ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

أو تقول النفس النادمة: يا ليت أن الله وفّقني لطريق الهداية لكنت من المتقين العاملين بأوامره - سبحانه - المجتنبين لنواهيه، ولكن هيهات لا ينفع الندم بعد زلة القدم.

٥٨ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

أو تقول هذه النفس النادمة بعدما تشاهد ما أعده الله للعصاة: يا ليت لي عودة أخرى إلى الدنيا فأحسن عبادة ربي وأهتدي بهداه وأتبع رسوله؛ وهذا كلام لا ينفع؛ لأنه تحسر المفرط.

٥٩ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

لقد أخطأت هذه النفس فيما قالت، فقد فات الأوان، وقد أتت هذه النفس آيات الله البينات عن طريق رسوله ﷺ فكذب بها هذا المعاند الجاحد، واستكبر عن قبول الحق واتباع الرسول ﷺ، وكفر بالله وبآياته وبالرسول وسنته.

٦٠ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

ويوم القيامة تشاهد الكفار الذين افتروا على الله كذبًا وادعوا أن لله شريكًا وولدًا وصاحبة ووصفوه - سبحانه - بغير أوصافه، تشاهد وجوههم سودًا كالحة شوهاء؛ لقبح ما افتروه وبشاعة ما ادعوه، أليس في النار قرار للكفار ومسكن لكل معاند متكبر صَدَّ عن سبيل الله وأعرض عن شرعه؟

٦١ ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

وينجي الله من النار الأتقياء الأبرار الذين عملوا بطاعة الواحد القهار، واجتنبوا معاصي الكبير الجبار؛ فيحصلون على فوزهم وفلاحهم الذي أمَّلوه في الدنيا وعملوا له، ويدركون الظفر برضوان الله وجنته، لا ينالهم عذاب النار، ولا يصيبهم شيء من الأخطار، ولا يحزنون على ما ذهب منهم من متاع الدنيا الفاني، فهم في سرور وحبور.

٦٢ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾

الله - تعالى - هو خالق المخلوقات جميعها ومبدعها، وهو مدبرها والمتصرف فيها، وهو متوكل بحفظها لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية.

٦٣ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

بيده - سبحانه - مفاتيح خزائن السموات والأرض، ومقاليد الأمور، يعطي ويمنع، ويرفع ويضع، ويقدم ويؤخِّر، ويولي ويعزل، ويعافي ويبتلي، ويهدي ويضل، فلا يقع في الكون شيء إلا بأمره ومشيئته - سبحانه -، والذين أنكروا آيات الله البينات وبراهينه الواضحات أولئك الذين ضل سعيهم وخاب عملهم وخسروا آخرتهم ودنياهم، ففي الدنيا لهم الهوان والخذلان، وفي الآخرة لهم الخلود في النيران.

٦٤ ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أتأمرونني - أيها الجهلاء - أن أعبد غير الله ربي الخالق الرازق المحيي المميت، هو المستحق للعبادة وحده الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه، فلا أجهل من المشرك ولا أشد حمقًا من الجاحد المعاند.

٦٥ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

ولقد أوحى الله إليك - أيها النبي - فيما أنزله عليك من الوحي، وأوحى إلى من سبقك من الأنبياء، فكان فيما أوحى إليك أنك لو أشركت مع الله أحدًا غيره في العبادة ليبطلنَّ الله عملك، وليذهبنَّ الله سعيك، ولتكونن من الهالكين الضالين، فتذهب عليك دنياك وأخراك، ولن يقبل الله منك عملاً؛ لأنه لا يُقبل من المشرك أي عمل.

٦٦ ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

بل الله وحده الذي لا إله إلا هو المستحق للعبادة، فأخلص له طاعتك واشكره على نعمه بتحقيق توحيده وحسن عبادته ودوام ذكره وشكره.

٦٧ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

وما عظَّم الكفارُ الواحدَ القهارَ حقَّ تعظيمه؛ لأنهم أشركوا معه في العبادة غيره من الأنداد والأضداد، فصرفوا شيئًا من عبادتهم للأصنام والأوثان، ولم يخلصوا الطاعة للواحد الديان، فما أجهلهم وأكثر حمقهم كيف سووا بين المخلوق العاجز المقصر المحتاج وبين الخالق الغني القوي العظيم، فمن عظمته أن جميع الأرض في قبضته يوم القيامة، والسموات السبع مطويات مثل طي السجل للكتاب بيمينه، سبحانه تقدس الله وتعالى وتبارك وتنزَّه عن وصف المشركين له وعن شركهم به، وعن كل وصف ألحقه به أعداؤه، بل هو كما وصف به نفسه - سبحانه - ووصفه رسوله ﷺ، وفي الآية إثبات القبضة، وإثبات اليمين لله سبحانه وتعالى، وكلتا يديه يمين، وإثبات الطي على وجه يليق بعظمة الله وجلاله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل.

٦٨ ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴾

ونفخ إسرافيل في القرن فمات كل حي في السموات والأرض إلا من شاء الله أن لا يموت، ثم نفخ إسرافيل نفخة ثانية فأحيا الله من أماته بالنفخة الأولى فإذا هم وقوفٌ للحساب عند الله ينظرون ماذا يُفعل بهم، وهذا المقام من أصعب وأشد المقامات على الإنسان.

٦٩ ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾

وأضاءت الأرض يوم العرض الأكبر إذا تجلى الله للحساب، ونشرت صحف الحسنات والسيئات، وحضر الرسل والشهداء على أعمال الناس، ليسأل الله الرسل ماذا أُجيبوا به من أممهم وهو أعلم، ويسأل الأمم ماذا أجابوا به المرسلين، ويستشهد الله أمة محمد ﷺ على كل الأمم، وحكم الله بين العباد فيما اختلفوا فيه، واقتص لبعضهم من بعض، وقضى بينهم بالعدل بلا ظلم، فلا ينقص من حسنات محسن ولا يُزاد في سيئاته.

٧٠ ﴿ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾

ووفى الله كل عاقل جزاء عمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهو - سبحانه - عالم بعمل كل عامل من صلاح وفساد وحسن وسيء.

٧١ ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

وساقت الملائكة الكفار إلى النار جماعات حتى إذا وقفوا على أبواب جهنم أذلاء مهانين أمر الخزنة بفتح أبواب النار، وقالوا للكفار يوبخونهم: أما أتاكم في الدنيا رسل من الله يقرؤون عليكم آيات كتب الله ويخوفونكم يوم القيامة، وينهونكم عن الشرك بالله والإعراض عن دينه؟ فرد الكفار معترفين نادمين: بلى أتتنا الرسل وأنذرونا ودعونا إلى الإيمان، ولكن وجبت كلمة أن العذاب على من كذّب وتولى.

٧٢ ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾

قيل للكفار - توبيخًا وإهانة -: ادخلوا أبواب النار باقين فيها دائمًا بلا خروج منها ولا تخفيف من عذابها، فقبح مقام من تكبر على الحق وأعرض عن الهداية وعاند الرسل وكذب الكتب.

﴿٧٣﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾

وسيق الأتقياء الأبرار الذين عملوا الصالحات واجتنبوا المحرمات إلى جنات النعيم، وهم جماعات، فوجدوا أبوابها مفتحة من قبل؛ احتفاءً بقدومهم وإكرامًا لهم، وحيَّاهم الملائكة بالبشر والسرور والتهنئة قد طابوا وطاب عملهم ومثواهم؛ لطهارتهم من الآثام، فلهم السلامة من كل أذى، والأمن من كل مخوِّف، ولهم الخلود الدائم في مقعد الصدق ودار الفوز.

﴿٧٤﴾ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾

وقال المؤمنون بعدما دخلوا الجنة: الحمد لله والثناء كله لله الذي أنجز لنا ما وعد على ألسنة رسله من الوعد بثواب الأبرار في دار القرار، وأورثنا الجنة ونعيمها، ننتقل فيها كما أردنا خالدين في أمن وقرة عين ولذة وسرور، فنعم هذا الثواب ثواب المحسنين الذين أدوا طاعتهم على أكمل وجه بإخلاص لله ومتابعة لرسوله ﷺ.

﴿٧٥﴾ ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

وترى الملائكة يحيطون بعرش الرحمن، يقدسون الله عن كل عيب ويسبحون بحمده وجلاله، وقضى الله بين العباد بالعدل فلم يظلم أحدًا، فنزل الأبرار جنات النعيم، ودخل الفجار النار، وقيل بعد أن تم القضاء والحساب ووقع الثواب والعقاب: الحمد لله رب العالمين على حسن قضائه والعدل في جزائه، فحمد على تفضله وإحسانه بأوليائه، وحمد على عدله في عقاب أعدائه.

مكية

سورة غافر

آياتها ٨٥

ترتيبها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿حمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها.

﴿٢﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾

تنزيل القرآن وحيًا من الله على رسوله ﷺ، والله هو العزيز الذي عزَّ من تولاه، وذلَّ من عاداه، العليم فلا تخفى عليه خافية، فبعزته قهر ما سواه، وبعلمه أحسن فيما قضاه.

﴿٣﴾ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

الله غافر ذنوب المستغفرين، وقابل توبة التائبين، الذي يرحم المنيبين، وهو شديد العقاب على من تجاوز حدوده واستهان بأمره وأصر على ذنبه، وهو صاحب التفضل على العباد وصاحب الإنعام على الخليقة، لا معبود بحق سواه، ولا إله غيره ولا شريك له، إليه يعود الخلق لإحقاق الحق ومجازاة كلٍّ بما يستحق.

﴿٤﴾ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾

ما يخاصم في براهين الله ويجحدها ويشك في أدلة الوحدانية إلا كلُّ مكذب معاند جاحد، فلا يغررك - أيها النبي - تردُّد الكفار في الأسفار لجمع الدرهم والدينار، والاشتغال بالكسب والعقار، والتلذذ بمتاع هذه الدار، فسعيهم إلى بوار ومأواهم النار، وبئس القرار.

٥ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

كذب قبل كفار مكة قوم نوح ومن جاء بعدهم من القرون، وتحزبوا وتآمروا وعزموا على الوقيعة برسلهم تعذيبًا وقتلاً، وعارضوا الحق بالهوى، وردّوا البراهين بالتكذيب والجحود، وقصدهم إطفاء نور الله ورد الحق، فنكَّل الله بهم وعذبهم ودمَّرهم، فانظر كيف كان انتقام الله من أعدائه وعذابه الذي حلَّ بهم.

٦ ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

وكما وجب العذاب على القرون الماضية المكذبة وجب أيضًا عذاب الله على هؤلاء الكفار واستحقوا عذاب النار؛ لكفرهم بالواحد القهار.

٧ ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾

حملة العرش من الملائكة – وهم من أفضل الملائكة وأكرمهم على الله – ومن يحف بالعرش ويحيطون به أيضًا من الملائكة الكرام يمجدون الله ويقدسونه وينزِّهونه عن كل عيب ونقص، ويثبتون له المحامد كلها، وصفات الكمال التي أثبتها لنفسه – سبحانه –، ويؤمنون بالله إيمانًا راسخًا يقينيًّا، ويسألون ربهم أن يغفر لعباده المؤمنين، ويقولون: ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلمًا، فاغفر للذين تابوا من الكفر والذنوب واهتدوا بهدى الله وسلكوا الصراط المستقيم، وهو دين الإسلام، واصرف عنهم عذاب النار، ونجِّهم منها برحمتك. وفي الآية إكرام الله لعباده المؤمنين، حيث جعل الملائكة تستغفر لهم، وفضل التوبة، وأن سبيل الله واحد، وهو دينه الذي ارتضاه.

٨ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ربنا وأدخل عبادك المؤمنين جنات عدن التي وعدتهم بها في الدنيا على إيمانهم وعملهم الصالح، وأدخل معهم المؤمن الصالح من آبائهم وأزواجهم وأولادهم، إنك أنت العزيز الذي لا يرد قضاؤه القاهر لما سواه، والمنتقم ممن عاداه، الحكيم في خلقه وصنعه وحكمه وشرعه.

٩ ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

واصرف عنهم سوء عاقبة ذنوبهم؛ فاعف عنهم ولا تعذبهم، ومن تصرف عنه عاقبة الذنوب فقد رحمته بالفوز بجناتك، ونيل رضوانك، والنجاة من نيرانك، وذلك هو الظفر بأجلِّ المطالب، ونيل أعلى المراتب.

١٠ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾

إن الكفار الفجار تناديهم خَزَنة النار حينما يمقتون أنفسهم على تركهم الإيمان لما أدركهم الخسران: لمقت الله لكم في الحياة الدنيا حينما عصيتم أمره وكذبتم أنبياءه أشد من لومكم لأنفسكم حينما أبصرتم العذاب وتيقنتم بعدل الله في عقابكم حينما دعيتم إلى توحيده فأبيتم ذلك.

١١ ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾

قال الكفار: يا ربنا قد أمتنا مرتين: مرة يوم كنا أجنة في بطون الأمهات قبل نفخ الروح، والثانية يوم تمت أعمارنا في الحياة الدنيا، وأحييتنا مرتين: مرة في الحياة الدنيا يوم ولدتنا أمهاتنا، والثانية يوم بعثنا من القبور، فقد اعترفنا بذنوبنا، فهل لنا من حيلة نخرج بها من نار جهنم، ونعود إلى الدنيا فنؤمن بك ونتبع رسلك؟ ولكن هيهات فقد فات الأوان، فالزمان ليس زمان إيمان.

١٢ ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾

ذلكم العقاب الذي حلَّ بكم – أيها الكفار – بسبب أنكم إذا نصحتم بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به كفرتم بذلك وأعرضتم عنه، وإذا أُشرك به معه غيره قبلتم ذلك وعملتم به، فالله – عز وجل – هو الحاكم بين العباد بالعدل لا

يظلم أحدًا، يهدي من أراد من العباد ويضل من أراد، ويرحم من شاء ويعذب من شاء، حكيم فيما قدَّر، محسن فيما فعل، له علو الذات والقدر والقهر، وله الكبرياء والجلال والعظمة.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ ١٣

الله الذي يطلعكم - أيها البشر - على براهينه التي تدل على بديع صنعه وتمام قدرته في الآفاق وفي الأنفس، وينزل من الغمام ماءً مباركًا يكون سببًا للخضرة والإنبات والنماء والحياة بإذن الله، وما ينتفع بهذه البراهين ويتفكر فيها إلا كل عائد إلى الله بالطاعة، مخلص له العبادة، كثير التوبة.

﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ ١٤

فاعبدوا الله - أيها الناس - وادعوه بإخلاص العبادة والمسألة له وحده ولا تشركوا معه غيره، ولو غضب من ذلك أعداؤه الكفار، فما عليكم منهم، بل اثبتوا على إخلاص العبادة لله.

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ ١٥

الله - سبحانه - الذي علت درجاته من خلقه وعلا قدره، فله علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، وهو ذو العرش العظيم، الذي لا يقدر قدره إلا الله، وهو مستوٍ عليه استواءً يليق بجلاله، ومن لطفه - سبحانه - بالخلق أن يرسل الأنبياء إليهم، فيوحي إلى هؤلاء الأنبياء من الحكمة والعلم النافع والهدى ما هو بمنزلة الروح التي يحيا بها الإنسان، بل حياة النفس بالوحي والهدى أعظم من حياة الإنسان بروحه. وبهذا الوحي يخوِّف الرسل الناس يوم العرض الأكبر ويحذرونهم من كل ما يوجب لهم العذاب يوم القيامة، يوم يلتقي فيه السابق واللاحق.

﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ١٦

يوم يظهر الناس ويبدون أمام الله للحساب في عرصات القيامة، لا يغيب عن الله من الناس ولا من أعمالهم شيء، قد علمها واطلع عليها وأحصاها وسوف يحاسبهم عليها، يقول - عز وجل - يوم القيامة: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ فيجيب نفسه سبحانه يقول: المُلْك لله المستحق للعبودية وحده القهار الذي قهر ما سواه، وأعز من تولاه، وأذل من عاداه، واحد له صفات الألوهية، وقهار له صفات الربوبية.

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ١٧

يوم القيامة تثاب كل نفس بما فعلت في الدنيا من حسن وسيء، لا يُظلم عبد يوم الحساب بزيادة سيئاته أو نقص حسناته، إن الله سريع الحساب، فلن يتأخر عنكم يوم الحساب بل هو قريب فتهيَّؤوا له.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ١٨

وخوِّف العباد - أيها الرسول - من يوم المعاد الذي اقترب ودنا، إذ قلوب الناس من هوله قد علت في صدورهم واقتربت من حلوقهم، وهم في همٍّ عميق وحزن شديد، وليس للكفار من قريب ينفع ولا ولي يشفع ولا نصير يدفع.

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ ١٩

يعلم الله تعالى ما تختلسه الأبصار من نظر، وما تضمره الصدور من سر، فحركات العين وخوافي الصدور معلومة لديه سبحانه.

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ٢٠

والله - تعالى - يحكم بين العباد يوم المعاد بالعدل، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، والمعبودات من دون الله لا تنفع ولا تضر ولا تقضي شيئًا؛ لعجزها عن ذلك. إن الله السميع لكل الأصوات، البصير بكل الأفعال والنيات، سمع الأقوال وبصر بالأفعال.

٢١ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾

أولم يذهب الكفار في الديار فيشاهدوا آثار الفجار وماذا فعل الله بهم لما كفروا به وكذبوا رسله، كان السابقون من الكفار أشد بطشًا من هؤلاء الكفار وأعظم قوة في الأبدان والعتاد، وأبقى في الدنيا آثارًا من البناء والصناعات، فلم تدفع عنهم قوتهم عذاب الله، بل أهلكهم الله بخطاياهم من كفر وسيئات، ولم يكن لهم أحد يحميهم من عذاب الله ويدفعه عنهم.

٢٢ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

ذلك العقاب الذي أنزله الله بأعدائه بسبب كفرهم وتكذيبهم للرسل بعدما أتوا بالبراهين على صحة نبوتهم والدعوة إلى توحيد الله تعالى، فنكَّل الله بهم ودمَّرهم، إن الله - تعالى - قوي يقهر من حاربه ويذل من غالبه، شديد العقوبة لمن عصاه، عظيم الأخذ لمن عاداه.

٢٣ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

ولقد أرسل الله موسى بالبراهين الدالة على وحدانيته، وجاء موسى بحجة واضحة ودليل ظاهر على صحة نبوته وعلى كذب دعوى فرعون وقومه.

٢٤ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾

أرسل الله موسى بالبراهين إلى فرعون طاغية مصر ووزيره هامان، وصاحب الكنوز قارون، فكفروا برسالة موسى وكذبوه وقالوا عنه: ساحر ذاهب العقل، كذاب في النقل، ومثل هذا لا يكون رسولاً للناس.

٢٥ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

فلما أتى موسى بالبراهين إلى فرعون وهامان وقارون كفروا وكذبوا بها وزادوا على ذلك بقتل الأبناء واستبقاء النساء للخدمة، وما مكر الكفار وتدبيرهم إلا في بُعد عن الحق وغياب عن الرشد، ومصيره هلاك أصحابه.

٢٦ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾

وقال فرعون لسادة قومه: اتركوني اقتل موسى وليسأل موسى ربه الذي ادعى أنه أرسله إلينا ليحميه منا، إني أخاف أن يغير موسى ديننا إلى دين آخر يدعو إليه، أو أن ينشر موسى الفساد في أرض مصر، وهذا من قلب الحقائق؛ فالمصلح أصبح مفسدًا والمفسد مصلحًا.

٢٧ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

وقال موسى لفرعون وقومه: إني أعوذ بالله ربي وربكم من كل متكبر جاحد معاند مكذب بالرسالة لا يصدق بيوم القيامة، ومن هذا شأنه فلن يردعه عن فعل ما أراد إلا رب العباد.

٢٨ ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

وقال أحد المؤمنين بالله المصدقين لموسى في الباطن وهو من أسرة فرعون: كيف تريدون قتل رجل ليس له إثم إلا أنه يقول: ربي الله، وهو المستحق للعبادة، وقد أتى بالأدلة الصحيحة على صدق رسالته؟ وإن كان موسى كاذبًا فيما ادعاه فضرر كذبه يرجع عليه، وهو الذي يتحمل تبعة ذلك، وإن كان موسى صادقًا نالكم بعض ما توعدكم به إذا كذبتموه، إن الله لا يرشد إلى الهدى من تجاوز الحدود في الكفر والذنوب؛ لأنه آثر الغواية عن قصد وأراد الباطل عن عمد، ولا يَرْشُدُ كذابٌ بسبب ما فعله من الكفر والذنوب إلى الله؛ لأن الكذاب موَّه على الناس فمُوِّه عليه الحق فلا يهتدي.

﴿٢٩﴾ ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

يا قومي: لكم سلطان مصر في هذا الزمن، وأنتم سادة بني إسرائيل، فمن يحمينا من عقاب الله إن وقع بنا؟ قال فرعون رادًّا عليه يخاطب قومه: ما أشير عليكم ولا أنصح لكم - أيها الناس - إلا ما أشير وأنصح به نفسي وما أدلكم إلا على النهج الصحيح والرأي السديد.

﴿٣٠﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾

وقال مؤمن آل فرعون مُذكِّرًا ومنذرًا: يا قومي، إني أخشى عليكم يومًا أسود يحل بكم فيه العذاب إن قتلتم موسى، مثلما حلَّ بالأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسلهم.

﴿٣١﴾ ﴿ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾

مثل عادة وطريقة قوم نوح وعاد وثمود ومن أتى بعدهم من القرون في الكفر والتكذيب فعذبهم الله بذنوبهم غير ظالم لهم، والله يعذب عدلاً ويرحم فضلاً، وتعالى الله عن ظلم العباد، بل يعاقب على الكفر والفساد.

﴿٣٢﴾ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾

ويا قومي: إني أخاف عليكم العذاب الذي يحل بكم إن كفرتم يوم ينادي البشر بعضهم بعضًا مما حلّ بهم من الخطر؛ وهو يوم القيامة.

﴿٣٣﴾ ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾

يوم القيامة تهربون ولا مهرب لكم من هول الموقف، وليس لكم من يدفع عنكم العذاب ولا من ينصركم إذا وقع العقاب، ومن يصرفه الله عن الهداية ولا يوفقه للصواب فلن تجد أحدًا يستطيع هدايته من الناس.

﴿٣٤﴾ ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾

ولقد أتاكم يوسف نبيًا رسولاً من عند الله بالبراهين الباهرة الواضحة على صحة رسالته، يدعوكم إلى توحيد الله وطاعته، فما زلتم في حيرة وريبة من رسالته في حياته، فلما توفاه الله تعاظمت حيرتكم وريبتكم، وقلتم: لن يرسل الله إلى الناس بعد وفاة يوسف رسولاً. مثل هذه الغواية التي أنتم فيها يكتبها الله ويقدرها على كل متجاوز للحدود، وشاكٍّ في ألوهية الله، فهو متكبر على الحق، شاكٌّ في الصدق؛ فكيف يوفق للصواب؟!

﴿٣٥﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾

الذين يخاصمون بالباطل ويردون البراهين التي أرسل الله بها رسله بالهوى وليس عندهم علم ولا دليل على ما ذهبوا إليه، عظمت هذه المخاصمة عند الله لقبحها، وعظمت عند المؤمنين، ومثلما ختم الله على قلوب من جادل بالباطل من الأمم السابقة يختم على قلب كل مستكبر معاند جاحد ظالم مستبد، فلكبره ردّ الحق، ولجبروته عمل بالباطل ودعا إليه.

﴿٣٦﴾ ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾

وقال فرعون متحديًا ومهددًا موسى بعد ما كذبه وردَّ ما جاء به: يا هامان، ارفع لي بناءً طويلاً شاهقًا لأصعد عليه وأصل إلى أبواب السموات.

﴿٣٧﴾ ﴿ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴾

فإذا صعدت ووصلت إلى أبواب السموات نظرت إلى إله موسى بنفسي، لأعلم صدق موسى من كذبه، مع غلبة ظني قبل الصعود والنظر أن موسى كاذبٌ فيما ادعاه من الرسالة، وهكذا حُسِّن لفرعون القبيح من فعله فرآه حسنًا،

وصرف عن الهدى بسبب الباطل الذي حسن له، وما مكر فرعون وتدبيره واحتياله لرد رسالة موسى إلا في خسار وبوار وهلاك ودمار؛ لأن سوء مكره يحيق به وبقومه.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

وقال مؤمن آل فرعون يعيد دعوته وموعظته: يا قومي، اتبعوني فيما أدعوكم إليه من الحق أدلكم على طريق الهدى وأجنبكم طريق الردى.

﴿٣٩﴾ ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾

يا قومي: إن هذه الحياة الدنيا قصيرة زائلة، أيام التنعم واللذة فيها قليلة منصرمة، فلا تغتروا بها ولا تثقوا بالبقاء فيها، وإن الدار الآخرة لمن آمن وأصلح هي دار النعيم المقيم، والسرور الدائم، والحياة الآمنة الرضية الأبدية؛ فقدموا العمل للآخرة من الإيمان بالله وحسن عبادته على العمل للدنيا والاغترار بها.

﴿٤٠﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

من فعل ذنبًا في حياته جازاه الله بمثل ذنبه من العقوبة، ومن فعل خيرًا من طاعة الله وأعمال البر وترك المعاصي رجالاً أو نساء مع توحيد الله والإخلاص له فلهم جنات النعيم، يدخلونها خالدين فيها، يرزقهم الله فيها مما لذَّ وطاب من الطعام والشراب، ونساء أتراب، وحُليّ وثياب بغير حساب.

﴿٤١﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾

ويا قومي: كيف أدعوكم إلى توحيد الله واتباع رسوله موسى عليه السلام - وهو ما سوف ينجيكم من عذاب الله ويحقق لكم الفوز بجنات النعيم - وأنتم تدعونني إلى الكفر بالله وتكذيب موسى، وهو ما يوصل إلى الخلود في نار جهنم؟!

﴿٤٢﴾ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾

تدعونني للكفر بالله والإشراك به والإعراض عن طاعته وليس لي علم بأن ما دون الله يستحق العبادة، وأنا أدعوكم لعبادة الله العزيز في ملكه وأمره، القوي في انتقامه، الغفار لذنوب من تاب وأناب، فهو عزيز يعز من والاه، غفور لمن تاب إليه ودعاه.

﴿٤٣﴾ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

لا أشك أن الذي تدعونني لعبادته من دون الله لا يستحق أن يُدعى إلى عبادته ولا يُسأل من دون الله، ولا يلجأ إليه لا في حوائج الدنيا ولا في مسائل الآخرة، وأن مرجع الناس جميعًا إلى الله ليحاسبهم على ما فعلوه، وأن من تجاوز حدود الله وكفر به وسفك الدماء وظلم الناس فمصيره إلى نار جهنم.

﴿٤٤﴾ ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

فلما وعظهم وأنذرهم وأيس من استجابتهم أخبرهم أنهم سوف يندمون حين لا ينفع الندم بعد زلة القدم، وسوف يعتمد هو على ربه ويتوكل على مولاه ويلجأ إلى خالقه؛ لأن الله عالم بأعمال وأقوال الناس، لا تخفى عليه منهم خافية، ولا يغيب عليه من عملهم شيء.

﴿٤٥﴾ ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾

فحمى الله مؤمن آل فرعون من انتقام الكفار وعاقبة مكرهم؛ لأنه توكل على الله وحده، وحل بالكفار سوء العذاب في هذه الدار، ثم بالخلود في النار.

﴿٤٦﴾ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

فأغرق قوم فرعون في الدنيا وعذبوا في الآخرة بنار جهنم، يعرضون عليها صباح مساء - وهذا دليل على عذاب القبر - ويوم القيامة يدخل آل فرعون نار جهنم خالدين فيها؛ جزاء على كفرهم وتكذيبهم.

﴿٤٧﴾ ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

وإذ تقع الخصومة بين الكفار في النار، فيقول الأتباع والرعاع المقلدون للكبراء والسادة: إنا تبعناكم وقلدناكم في معتقدنا في الحياة الدنيا فهل تتحملون عنا نصيبًا من عذاب النار لأنكم كنتم السبب في ضلالنا وكفرنا؟!

﴿٤٨﴾ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾

قال الكبراء والسادة للأتباع: لا نستطيع تحمل شيء من العذاب عنكم، فكلنا في النار لا مخرج لنا منها، إن الله قد قضى بين الناس، فأعطى كلاً ما يستحقه من العذاب والثواب بعدل لا ظلم فيه.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

وقال الكفار الذين في النار من السادة والأتباع لخزنة النار: ادعوا الله أن يخفف عنا من عذاب النار يومًا واحدًا لكي نستريح ولو وقتًا قصيرًا من العذاب.

﴿٥٠﴾ ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾

فردّ خزنة النار على الكفار بقولهم: لن يخفف عنكم العذاب، أما جاءتكم الرسل من عند الله بالبراهين الدالة على وحدانية الله وصدق الأنبياء فكفرتم وكذبتم، فأقر الكفار بأنهم كذبوا بآيات الواحد القهار، فقال الخزنة: فلن ندعو لكم ولن نشفع فيكم، فادعوا أنتم، ودعاؤكم لا ينفعكم ولن يستجاب لكم؛ لأن دعاء الكفار لا ينفعهم ولا يستجيب الله لهم؛ بل هو ضياع وهباء.

﴿٥١﴾ ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾

إن الله ينصر رسله وعباده المؤمنين، ويجعل العاقبة لهم على من حاربهم في حياتهم الدنيا، ويوم القيامة الذي تشهد فيه الملائكة والرسل والصالحون بين عباد الله على الأمم الكافرة فتشهد أن الأنبياء بلغوا وأن الكفار كذبوا.

﴿٥٢﴾ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

يوم القيامة لا تنفع الكفار الأعذار وهم مطرودون من رحمة العزيز الغفار، ولهم أقبح قرار في تلك الدار، وهو الخلود في النار.

﴿٥٣﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

ولقد أنزل الله التوراة على موسى فيها رشد وبيان وأحكام تدل على الخير والهدى، وجعل الله بني إسرائيل يتوارثون التوراة جيلاً بعد جيل.

﴿٥٤﴾ ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

والتوراة مرشدة إلى الصراط المستقيم قبل أن تحرَّف وتنسخ بشريعة محمد ﷺ، وفيها عبرة وعظة وتذكير لأصحاب العقول السليمة والفطر القويمة.

﴿٥٥﴾ ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

فاصبر - أيها الرسول - على تكذيب الكفار وأذى الفجار، فإن الله وعدك بالنصر والتمكين والرفعة، وهو - سبحانه - لا يخلف ما وعد، بل ينجزه لك وقد حصل هذا، وعليك بالاستغفار من الذنوب، فبالاستغفار تنال رضى الواحد القهار وتنجو من الأخطار، ونزِّه ربك ومجده بالتسبيح الذي تنفي فيه النقص عن الله المقرون بالحمد الذي هو إثبات الكمال له - سبحانه - في كل مساء وكل صباح.

﴿٥٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

إن الذين يخاصمون في البراهين الدالة على وحدانية الله وعظمته، ويخلطون الحق بالباطل وليس عندهم دليل صحيح على ما خالفوا فيه وعلى صدق دعواهم، هؤلاء حملهم على ذلك الكبر والعناد والعجب الذي انطوت عليه

صدورهم، وهم يحسدونك على ما عندك من الفضل الذي منحك الله إياه، ولن يبلغوا هذا الفضل ولن يصلوا إلى الإضرار بك فالله حاميك، فالجأ إلى الله واطلب منه الحماية من أذاهم، فإنه يسمع أقوالهم ويبصر أحوالهم وأفعالهم، وهو محيط بهم.

٥٧ ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

لخلق الله للسموات والأرض أعظم وأكبر من خلقه - سبحانه - للناس وإحيائهم بعد الموت، فلماذا يشكون في قدرة الله على بعث الناس من القبور؟ وأكثر الناس لا يعلمون حقيقة أن الخلق سهل يسير على الله، وأن خلق السموات والأرض أعظم من خلق البشر.

٥٨ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

وما يستوي الأعمى والبصير في تمام الرؤية وتمييز الأشياء، كذلك لا يستوي المؤمنون الصالحون ولا الكفار المعاندون، ما أقل تذكركم - أيها الناس - براهين الله وتدبرها والانتفاع بها والفقه فيها.

٥٩ ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

إن يوم القيامة واقع لا محالة، فاعملوا له بإخلاص العبادة لله والتزود بالصالحات، ولكن أكثر البشر لا يصدقون بيوم القيامة ولا يعملون له، بل هم في غفلة وإعراض.

٦٠ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

وقال ربكم - أيها الناس -: ادعوني دون سواي، وأخلصوا العبادة لي أستجب لكم، فأقضي حاجاتكم وأكشف كرباتكم، إن المتكبرين عن العبودية لله وإفراده بالألوهية سيدخلون نار جهنم أذلاء خائبين.

٦١ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

الله وحده - سبحانه - هو الذي خلق لكم الليل تسكنون فيه وتنامون وتستريحون من أعمالكم، وخلق لكم النهار مضيئًا بالشمس لتطلبوا فيه رزقكم وتؤدّوا فيه أعمالكم، إن الله لذو إنعام كبير على العباد، ولكن أكثر البشر لا يشكرون الله بإخلاص العبادة له وإفراده بالطاعة.

٦٢ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

الله وحده الذي تفضل عليكم بهذه النعم، إنما هو ربكم الخالق الرازق الذي أوجد كل شيء من العدم، لا معبود بحق سواه ولا شريك له فكيف تنحرفون عن توحيده إلى الإشراك به وعبادة ما سواه، جل في علاه ولا رب لكم غيره.

٦٣ ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

كما انحرفتم وأعرضتم عن عبادة الله وتوحيده ينحرف عن ذلك كل جاحد معاند لا يقبل الدليل ولا يتبع الحق.

٦٤ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

الله وحده - سبحانه - هو الذي خلق لكم - أيها الناس - الأرض ومهّدها وسواها لكم لتستقروا على ظهرها، وسهّل لكم العيش عليها، وخلق السماء فوق الأرض سقفًا لها، وخلق لكم في السماء علامات هي نِعَم لكم كالشمس والقمر والنجوم والسحاب، وخلقكم - أيها الناس - على أجمل صورة وأتم هيئة، وتفضل عليكم بما لذّ وطاب من الطعام والشراب والمراكب الوطية والرزق الهنيء كافة، مع مباهج الحياة ولذائذ المعيشة، والذي أنعم عليكم بذلك هو الله وحده جل في علاه، فتكاثر برّه، وعمّ فضله، واتسع جوده، وتقدس عن كل وصف لا يليق به، وهو رب الخليقة كلها وخالق العالم بأسره.

٦٥ ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

هو الله الحي حياة كاملة تامة لا تشابه حياة المخلوق الناقصة المنتهية، فهو المستحق للعبادة وحده دون سواه، فاعبدوه واسألوه وأخلصوا له الطاعة ولا تشركوا به شيئًا، فالحمد الجزيل والثناء الجميل والشكر الجليل لله خالق الكون وما فيه.

٦٦ ﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: إن الله نهاني عن عبادة ما تعبدونه من دونه من أوثان، وأوصاني لما أتتني البراهين الواضحة الصحيحة على وحدانية الله، وأمرني ربي أن أطيع أمره وأنقاد لحكمه، وأُذعن له وحده، خالق الخليقة ورب الكون كله.

٦٧ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

الله وحده الذي أوجد أباكم آدم وأنشأه - أيها البشر - من تراب، ثم خلقكم أنتم متناسلين من ماء مهين، وبعد ذلك إلى دم غليظ، ثم قطعة لحم، ثم يولد الواحد من بطن أمه طفلاً صغيرًا، ثم يصل الواحد منكم إلى مرحلة اكتمال نموه وقوة جسمه، ثم يذوي إلى أن يصبح شيخًا كبيرًا هرمًا إذا طال عمره، وبعضكم يموت قبل ذلك، ولتصلوا بما قدره الله لكم من أعمال إلى وقت معلوم تموتون فيه، ولعلكم تتدبرون براهين الله وعجيب خلقه ونفاذ قدرته، وتتفكرون في بديع صنعه فتوحدوه وتخلصوا له العبادة.

٦٨ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

هو - سبحانه - الذي يوجد الخلق من العدم ويتوفاهم ثم يبعثهم بعد موتهم، فإذا أراد قضاء أمر قضاه بكلمة «كن» فيكون، هذا الأمر بإذن الله.

٦٩ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾

ألا تعجب - أيها الرسول - من الكفار الذين يخاصمون في براهين الله الصادقة الصحيحة، وهي يقينية على وحدانية الله، كيف ينحرفون عن الإيمان بها مع صحتها وصدقها، وكيف يضلون بعد إقامة الحجة البينة.

٧٠ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾

هؤلاء الكفار الذين كذبوا بالقرآن وبكتب الله المنزلة على رسله، سوف تظهر لهم نتيجة كفرهم إذا أنزل الله بهم أشد العقوبة على تكذيبهم يوم القيامة.

٧١ ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴾

يوم توضع الأغلال في أعناق الكفار وتوضع السلاسل في أرجلهم.

٧٢ ﴿ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴾

وتجرّ الزبانية الكفار في الماء الحار شديد الحر والغليان، ثم يحرقون في نار جهنم الموقدة.

٧٣ ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾

ثم قيل للكفار في النار - تبكيتًا -: أين معبوداتكم المزعومة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟

٧٤ ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

هل تنصركم هذه المعبودات من دون الله؟ وهل تدفع عنكم اليوم عذاب الله؟ قال الكفار: إن هذه المعبودات غابت اليوم عن عيوننا وخذلتنا ولم تنفعنا بشيء، ويقرون بخطئهم وجرمهم في عبادة غير الله وفي الإشراك به، وأنهم كانوا على سفه وباطل، كما أضل الله هؤلاء الكفار بعبادة غيره مما لا ينفع ولا يضر يضل الله كل جاحد معاند يرد الحق ويكذب بالصدق.

﴿٧٥﴾ ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾

ذلكم العقاب الذي حلَّ بكم - أيها الكفار - بسبب غفلتكم عن طاعة ربكم وفرحكم بمعاصيكم وشهواتكم ومظاهر دنياكم الخدّاعة وما كنتم عليه من الأشر والبطر والكبر والعلو.

﴿٧٦﴾ ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

ويقال للكفار: ادخلوا أبواب النار باقين فيها أبدًا معذبين فيها دائمًا، فقبحت جهنم مقامًا لكل متكبر معاند، وساءت وساء أهلها.

﴿٧٧﴾ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

فاصبر - أيها الرسول - على أعباء الدعوة، واصبر على كل أذىً ينالك في سبيل الله، واثبت على نهجك، إن الله وعدك بالنصر والتمكين، وسوف ينجز لك ما وعد، فإما أن ترى في حياتك بعض ما وعد الله به الكفار من العذاب والنكال، أو تموت قبل أن تحل بهم العقوبة، فمعاد الكفار إلى الله يوم القيامة، وسوف يعذبهم على ما فعلوا من كفر وتكذيب، فإنما عليك الدعوة والصبر والثبات.

﴿٧٨﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾

ولقد أرسل الله رسلاً من قبلك - أيها النبي - إلى أقوامهم، بعضهم أخبرك الله عنه، وبعضهم لم يخبرك عنه، وجميعهم بلَّغ رسالة الله إلى قومه، ولا يستطيع أحد من الرسل أن يأتي قومه بمعجزة أو آية شرعية أو كونية إلا بمشيئة الله وحده، فإذا حان نزول العذاب بالكفار، حكم الله بالعدل بين الرسل ومن كذّبهم، وهلك المكذبون المفترون على الله وحل بهم العقاب لسوء فعلهم.

﴿٧٩﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

الله وحده هو الذي خلق لكم الأنعام - أيها الناس - وجعل لكم فيها منافع؛ منها ركوب ظهور بعضها وأكل لحوم بعضها، وهذه نِعَمٌ يجب شكر الله عليها.

﴿٨٠﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

ولكم منافع كثيرة في الأنعام، كالانتفاع بالجلود والشعر والوبر والصوف، ولتحققوا على بعضها أغراضًا في صدوركم مثل السفر إلى الديار البعيدة، وعلى هذه الأنعام تحملون أمتعتكم في البر، وعلى الفلك تحملونها في البحر.

﴿٨١﴾ ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾

ويريكم الله البراهين الدالة على وحدانيته وعظمته وحسن صنعه، فما هو البرهان الذي تنكرونه وقد خفي عليكم ولم تعرفوه؟ فالكل واضح بيّن.

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

أفلم يذهب الكفار في الأقطار فيتفكروا في آثار الفجار الذين أهلكهم الواحد القهار، وكان أولئك المكذبون السابقون أكثر من هؤلاء الكفار عدة وعددًا وبأسًا وآثارًا في البناء والصناعة والزراعة ونحوها، فما دفع عنهم عذابَ الله ما عندهم من القوة والآلات والمواهب، بل أهلكهم الله وقطع دابرهم.

﴿٨٣﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

فلما أتت الرسل هؤلاء الكفار بالبراهين الدالة على وحدانية الله وقدرته، فرح هؤلاء الكفار بما عندهم من العلم المعارض لبراهين الرسل؛ جهلاً منهم وغرورًا، ونزل بهم من عقوبة الله ومن بأسه ما كانوا يستحقونه على سخريتهم من الرسل واستهزائهم بآيات الله، وفي هذا دليل على أن كل علم يناقض ما جاء به الرسول ﷺ هو علم ضار مذموم.

﴿٨٤﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾

فلما شاهد الكفار عقاب الواحد القهار أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار، وقالوا: آمنا بالله العزيز الغفار، وكفرنا بكل معبود سواه من الأشجار والأحجار.

﴿٨٥﴾ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

فلم ينفع الكفار هذا الإيمان بعد فوات الأوان حين شاهدوا الخزي والهوان، وهذه سنة الله وطريقته في كل زمان ومكان: أن العذاب إذا نزل بالكفار فلا ينفعهم إيمانهم بعد نزوله؛ لأنه إيمان اضطرار لا اختيار، وهلك عند حلول نقمة الله أعداؤه من الجاحدين المعاندين.

مكية

سورة فصلت

ترتيبها ٤١ — آياتها ٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿حمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها.

﴿٢﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

هذا الكتاب الحكيم هو وحي من الله أنزله على رسوله الكريم، ومُنْزِله هو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، الرحيم الذي اختص برحمته من شاء من عباده.

﴿٣﴾ ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

هذا القرآن كتاب بُيِّنت آياته ووُضِّحت أحكامه وظهرت معجزاته، أنزله الله بلغة العرب أفصح اللغات؛ ليكون مفهومًا سهلاً واضحًا عند تلاوته وسماعه.

﴿٤﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

هذا القرآن يبشر المؤمنين بالثواب، وينذر الكفار بالعقاب، فأعرض أكثر الناس عن القرآن وهجروه، فهم لا يسمعونه سماع فهم وقبول واستجابة.

﴿٥﴾ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾

وقال الكفار للرسول ﷺ: إن قلوبنا أصبحت في حجب وأغطية من فهم ما جئت به من رسالة، وفي أسماعنا صمم فلا نسمع ما تقول، وأصبح بيننا وبينك حجاب يسترنا عن اتباعك وإجابتك، فاعمل أنت على ملتك وما جئت به، واتركنا نعمل على ملتنا ودين آبائنا.

﴿٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: إنما أنا إنسان مثلكم ولستُ ملكًا، ولكن الله أنزل علي وحيًا جعلني نبيًا، وأنا أدعوكم إلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فاسلكوا الصراط المستقيم الموصل إلى الله وهو التوحيد الذي دعت إليه الرسل، واستغفروا الله من ذنوبكم. وهلاك للكفار الذين أشركوا بالله غيره.

٧ ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

هؤلاء الكفار تركوا الصلاة والزكاة فلم يعبدوا الخالق ولم ينفعوا الخلق، وقد كذبوا بالبعث بعد الموت.

٨ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

إن المؤمنين الصالحين لهم ثواب عظيم ونعيم مقيم لا ينقطع عنهم ولا يمنع منهم.

٩ ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار منكرًا عليهم: أإنكم لتكفرون بالله وقد خلق الأرض في مدة يومين وتشركون بالله غيره من المعبودات الباطلة، والله وحده هو خالق الكون ومن فيه وما فيه، تقدست أسماؤه؟!

١٠ ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾

وجعل الله - تعالى - في الأرض جبالاً راسية ثابتة على سطح الأرض تمسكها لئلا تضطرب، وبارك في الأرض بسائر أنواع الخيرات والثمار والأرزاق، وقدر الله في الأرض أقوات المخلوقات من غذاء وماء وكساء وهواء ودواء في مدة أربعة أيام: يومان لخلق الأرض، ويومان لخلق الجبال وتقدير الأقوات، وهذا جواب لكل سائل عن ذلك، فمن سأل فهذا جواب سؤاله ليكون على علم.

١١ ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

ثم استوى - عز وجل - أي: قصد إلى السماء وكانت من قبل دخانًا، فقال - سبحانه - للسماء وللأرض: انقادا لأمري مختارتين أو مجبرتين، قالتا: بل ننقاد لأمرك طائعتين ذليلتين، فليس لنا قوة على مخالفة أمرك ولا إرادة تخالف إرادتك. فيا سبحان الله، هذه السماء والأرض أطاعتا وأذعنتا مع الضخامة والقوة، فكيف لا يذعن الإنسان مع الضعف والعجز.

١٢ ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾

فقضى الله خلق السموات السبع وأتمهن وأحكم صنعهن في يومين، فصار مدة خلق السموات والأرض ستة أيام، والله قدير أن يخلقها في طرفة عين بكلمة «كن»، وأوحى في كل سماء ما شاء أن يوحيه ويأمر به - سبحانه -، وزيّن الله السماء الدنيا بالنجوم اللامعة، زينة لها، ولتحفظها من الشياطين التي تسترق السمع؛ ذلك الخلق المتقن المحكم قدره العزيز في ملكه، المعز من أطاعه والمنتقم ممن عصاه، العليم الذي لا تخفى عليه خافية، فهو قوي بعزه وعليم بحكمه.

١٣ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾

فإن كذب الكفار بعد بيان الحق لهم، فأنذرهم - أيها الرسول - بعقاب هائل يدمرهم مثلما أهلك الله قوم عاد وثمود لما كذبوا الرسل وكفروا بالله.

١٤ ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

يوم أتت الرسل إلى عاد وثمود يتبع بعضهم بعضًا بلا انقطاع، يدعونهم إلى توحيد الله وطاعته، قال المكذبون للرسل: لو أراد الله أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئًا لأنزل علينا من السماء ملائكة يدعوننا إلى توحيده، ولم يرسل إلينا بشرًا مثلنا، فإنا مكذبون بما تدعوننا إليه ولا نصدقكم فيما تقولون.

١٥ ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

فأما عاد قوم هود فقد تكبروا على الناس وعلوا في الأرض بالباطل، وقالوا في عتو وعناد: لا أحد أقوى منا، أو لم يعلم هؤلاء الجهلاء أن الله الذي أوجدهم من العدم أشد منهم بطشًا وأعظم منهم بأسًا، وكانوا ينكرون براهين الله، ويردون أدلة وحدانيته.

﴿١٦﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾

فأرسل الله على عاد ريحًا قوية عاصفة لها صوت مرتفع في أيام شؤم ونكال؛ ليذوقوا عذاب الهوان والذل والخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة عند الله في نار جهنم أشد هوانًا وذلاً وخزيًا، ولا ناصر لهم يدفع عنهم عذاب الله.

﴿١٧﴾ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

وأما ثمود قوم صالح فقد وضح الله لهم الصراط المستقيم، ودلّهم على النهج القويم، فاختاروا الغواية على الهداية، فدمَّرتهم صاعقة العذاب المهين المخزي؛ بسبب أعمالهم القبيحة من كفر وذنوب.

﴿١٨﴾ ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

ونجى الله من العذاب الذي حل بعاد وثمود من كان مؤمنًا به متبعًا لرسله ممن يخافه ويتقيه ويطيعه سبحانه.

﴿١٩﴾ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

ويوم القيامة يُساق الكفار إلى النار، ترد الزبانية الكفار أولهم على آخرهم.

﴿٢٠﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

حتى إذا أتى الكفار النار، وجحدوا ما فعلوه من سوء، شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما فعلوه.

﴿٢١﴾ ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

وقال الكفار لجلودهم لـمَّا شهدت عليهم: لماذا شهدتم علينا بما فعلنا من ذنوب؟ قالوا: الله الذي أنطقنا هو الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة، ولم تكونوا شيئًا، وإليه تعودون بعد الموت للحساب.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

وما كنتم تستخفون عند اقترافكم الذنوب خوفًا من أن يشهد عليكم السمع والبصر والجلود يوم الحساب، ولكن ظننتم أن الله يخفى عليه كثير من عملكم القبيح.

﴿٢٣﴾ ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

وذلكم الظن السيء الذي ظننتموه بالله من عدم علمه بكثير من أعمالكم هو الذي أهلككم، فأصبحتم يوم القيامة ممن خسر نفسه وأهله.

﴿٢٤﴾ ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾

فإن يصبر الكفار على العذاب فالنار مأواهم ومستقرهم، ولا صبر عليها، وإن يطلبوا الرجوع إلى الدنيا للتوبة فلن يجابوا إلى ذلك ولن تقبل لهم توبة أو عذر.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾

وهيأ الله للكفار قرناء غاوين من شياطين الإنس والجن فحسّنوا لهم قبائح ذنوبهم في الدنيا، وأوقعوهم في المحرمات والشهوات وصدوهم عن الطاعات، وحسنّوا لهم ما خلفهم من مسائل الآخرة، فأنسوهم ذكرها وحملوهم على الكفر بالبعث بعد الموت والحساب، وأوجب الله على هؤلاء الكفار دخول النار بسبب كفرهم ومعاصيهم مع أمم سابقة من كفار الجن والإنس، إن هؤلاء الكفار خسروا أنفسهم وأهليهم وأعمالهم يوم المعاد.

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

وقال الكفار يوصي بعضهم بعضًا: لا تسمعوا لهذا القرآن ولا تتبعوه ولا تقبلوه، وإذا قُرئ عليكم فارفعوا أصواتكم بالصياح والصفير على محمد لعلكم تغلبونه فلا يقرأ القرآن، وتنتصرون عليه بإسكاته ومنعه من التلاوة والدعوة.

﴿٢٧﴾ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

فسوف يذيق الله الكفار على قبيح ما فعلوه عذابًا شديدًا في الدنيا بالقتل والأسر والنكبات، وفي الآخرة بدخول النار، وسوف يعاقبهم أسوأ عقاب على سوء ما اقترفوه .

﴿٢٨﴾ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

هذا العقاب الذي يعاقب به الكفار هو نار جهنم باقين فيها أبدًا، عقابًا على تكذيبهم بآيات الله وإنكارهم البراهين الشرعية، وكل من سعى في صرف الناس عن الكتاب والسنة بأيّ وسيلة دخل في هذا الوعيد.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾

وقال الكفار في النار: ربنا أرنا اللذين أضلانا من شياطين الجن والإنس لنجعلهم تحت أقدامنا في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم كانوا سببًا في إغوائنا.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

إن الذين قالوا: ربنا الله فوحّدوه وأخلصوا له العبادة ولم يشركوا به شيئًا ثم استقاموا على دينه بفعل الأوامر واجتناب النواهي وحسن متابعة الرسول ﷺ، هؤلاء الأبرار تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند سكرات الموت، يقولون لهم: أبشروا بما يسركم عند ربكم، فلا تخافوا من الموت وما وراء الموت من أهوال، ولا تحزنوا على ما تركتموه في الدنيا من أموال وأولاد، وأبشروا بالخلود في الجنة بلا انتقال ولا زوال، مثلما وعدكم رب العزة والجلال.

﴿٣١﴾ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾

وتقول الملائكة للمؤمنين: نحن أنصاركم وأحبابكم في حياتكم الدنيا فنحفظكم بأمر الله من كل مكروه، ونحن معكم في الآخرة فنطمئنكم من كل مخوف، ولكم في جنات النعيم كل ما تهواه أنفسكم وتقر به عيونكم، فكلما سألتم أُجِبْتُم فوجدتم كل مطلوب محبوب بين أيديكم حاضرًا بلا عناء بل بالهناء والشفاء.

﴿٣٢﴾ ﴿نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾

وهذا النعيم ضيافة من الغفور للذنوب الرحيم بالعباد، فهو الذي غفر لكم السيئات وقَبِلَ منكم برحمته الطاعات.

﴿٣٣﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

لا أحد في العالم أحسن قولاً ممن دعا إلى توحيد الله وعبادته وعمل الصالحات ودعا إلى سنة رسوله الكريم ﷺ وقال: إنني من المسلمين الخاضعين الطائعين المنقادين لحكم الله وشرعه. وفي الآية فضل الدعوة إلى الله - سبحانه -، وأنها أشرف مقامات العبودية، وأن العلماء بالله الداعين إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة هم من خيار الناس وأفضل الأمة وأحب العباد إلى الله تعالى، وكفى الدعاة شرفًا هذه التزكية والثناء من رب الأرض والسماء.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

ولا تستوي حسنة الأبرار وسيئة الأشرار، وكذلك لا يستوي العمل الصالح والعمل الفاسد، ولا تستوي الحسنة مع الناس من البر والعفو والحلم ولا السيئة معهم من الأذى والإضرار بهم، ادفع بحلمك - أيها المؤمن - سيئة من أساء إليك من الناس، وقابل القبيح بالجميل، والإساءة بالإحسان، حينها يتحول عدوك إلى صديق محب موال كأنه قريب شفيق عليك.

﴿٣٥﴾ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

وما يمتثل هذا الخلق ويوفق لهذا العمل من العفو والحلم والإحسان إلى من أساء إليه إلا من صبر على ما يكرهه، وحبس النفس عن التشفي والانتقام، وقوَّمها على شرع الله وعملت بما يرضي الله ويوافق كتابه وسنة رسوله ﷺ، وما يقوم بذلك ويوفق له إلا من هو ذو نصيب كبير من السعادة والرشد والسداد، فهو الموفق المبارك أينما كان.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

وإما يوسوس لك الشيطان بوسوسة من دواعي السوء وقبيح الفعل وأذية الناس، ومجازاة المسيء بالإساءة، فاستجر بالله من الشيطان والتجئ إلى ربك بطاعته وترك معاصيه، واعتصم بذكر الله، فإن الله سميع لكل قول وصوت، عليم بكل فعل وحال، فلسمعه وعلمه يجيب من سأله، ويعيذ من استعاذ به.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾

ومن براهين الله في الكون الدالة على وحدانيته وقدرته، اختلاف الليل والنهار، ومجيء هذا وذهاب ذاك، واختلاف الشمس والقمر وجريانهما بتوقيت وحكمة، وتسخير من الله تعالى، فلا تسجدوا - أيها العباد - للشمس ولا للقمر فإنهما مخلوقان مدبران، بل اسجدوا لله واعبدوه الذي أوجد هذه المخلوقات وأبدعها إن كنتم تعبدونه حق عبادته وحده لا شريك له، فهذه عبادته.

﴿٣٨﴾ ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾

فإن تكبر الكفار عن السجود للواحد القهار، فإن الملائكة الأبرار يسبحون له بالليل والنهار، وهم لا يفترون عن ذلك ولا يملّون، فالواجب على العبد أن يفعل فعل الملائكة في الاستمرار على الأذكار.

﴿٣٩﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾

ومن البراهين الدالة على وحدانيته وعظمته جل في علاه أنك - أيها الإنسان - تشاهد الأرض المجدبة اليابسة لا خضرة فيها، فإن أنزل الله عليها الماء من السماء أنبتت بإذن الله وتحركت بالاخضرار والأزهار والأشجار، وارتفع فيها العشب والنبات وعلا، إن الله الذي أحياها قادر على إعادة الخلق بعد إماتتهم وبعثهم من قبورهم؛ لأنه قادر على كل شيء لا يعجزه - سبحانه - أمر.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

إن الذين يجحدون آيات الله ويميلون عن الإيمان، ويكفرون بالرحمن ويكذبون القرآن لا يخفون على الواحد الديان، بل هو عالم بعملهم، مطلع على أفعالهم، فهل هذا المكذب الجاحد الذي يُطرح في النار على وجهه، أفضل أم المؤمن المصدق الذي يأتي يوم القيامة آمنًا من عذاب الله داخلاً رحمته مستقرًا في جنته؟ اعملوا - أيها الكفار - الجاحدون ما أردتم من أعمال فإن الله عالم بعملكم مطلع عليه، لا تغيب عنه غائبة وسوف يجازيكم بفعلكم.

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾

إن الذين كذبوا بآيات القرآن وأنكروه ولم يؤمنوا به معذبون هالكون، وإن القرآن عزيز المحل شريف الموضع عالي المكانة، محفوظ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل بحفظ الله له.

﴿٤٢﴾ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾

لا يصل الباطل إلى القرآن من أيّ ناحية من نواحيه لا في براهينه ولا أحكامه ولا مواعظه ولا قصصه ولا أمثاله، ولا يحرَّف ولا يبدل، نزله الله على رسوله ﷺ، والله هو الحكيم في خلقه وصنعه، الحميد في صفاته وأفعاله، المحمود على نعمه وأفضاله.

﴿٤٣﴾ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾

ما يقول لك هؤلاء الكفار - أيها الرسول - إلا مثلما قال من سبقهم من الكفار لرسلهم من التكذيب والاستهزاء، فاصبر على أذاهم واصبر على مشقة التبليغ، إن ربك لكثير الغفران لمن تاب من العصيان، وذو عقاب شديد لمن أصر على الكفر والتكذيب.

٤٤ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾

ولو أنزل الله هذا القرآن على رسوله ﷺ بلغة أعجمية لقال الكفار: لماذا لم تبيّن لنا آيات القرآن بلغة عربية، كيف يكون القرآن أعجميًا والرسول عربي؟ قل - أيها الرسول - للكفار: هذا القرآن هداية للمؤمنين به من الضلالة، وشفاء لما في صدورهم من الشك والقلق والشبهات، والمكذبون بالقرآن في أسماعهم صمم عن فهم القرآن، والقرآن على قلوبهم عمىً؛ لأنهم كلما سمعوا كذبوا فزاد ضلالهم، أولئك الكفار عندما يُدعَونَ إلى الإيمان كمن ينادى من مكان بعيد، فلا يسمع داعيًا، ولا يجيب مناديًا.

٤٥ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

ولقد أعطى الله موسى التوراة كما أعطى محمدًا القرآن، فاختلف بنو إسرائيل في التوراة، فمنهم من صدق ومنهم من كذّب، ولولا أن الله كتب وقضى بتأجيل عذاب الكفار لحكم بينهم - سبحانه - بإهلاك الكفار في الحال ولم يمهلهم، وإن الكفار لفي شك وحيرة وريبة من القرآن؛ لما خالط قلوبهم من التكذيب.

٤٦ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

من اتقى الله وعمل صالحًا وهو مخلص متبع سنة رسول الله ﷺ فنفع ذلك وأجره عائد إليه، ومن عصى الله ورسوله فضرر ذلك وعقابه واقع عليه، وما ربك بظالم للناس بأن ينقص المحسن من حسناته، أو يزيد المسيء في سيئاته.

٤٧ ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾

إلى الله وحده يعود علم، يوم القيامة وخبره متى يقع وما يحصل فيه، وما من ثمرة تخرج من وعائها، ولا أنثى تحمل ولا حامل تضع ما حملت إلا بعلم الله وقدره، لا يغيب عنه شيء من علم ذلك، ويوم ينادي الله الكفار يوم القيامة - تبكيتًا لهم -: أين شركائي الذين كنتم تشركونهم في عبادتي؟ فيجيب الكفار بقولهم: أعلمناك الآن أنه ليس منا أحد اليوم يشهد أن معك إلهًا غيرك، فأنت وحدك المعبود بحق لا شريك لك، وهذه شهادة بعد فوات الأوان.

٤٨ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

وذهب عن هؤلاء الكفار معبوداتهم الباطلة من دون الله، وتخلَّوا عنهم، وتيقنوا أن لا فرار من عذاب الله، وأنه لا منجى من الله ولا ملتجأ إلا إلى الله.

٤٩ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾

لا يمل العبد من سؤال خير الدنيا من ربه لحبه الحياة وحرصه على الخير، وإذا أصابته ضراء أو بأساء يئس من روح الله وقنط من رحمته وساء ظنه بربه واستبطأ الفرج.

٥٠ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

وإذا أنعم الله على العبد بفرج بعد شدة ويسر بعد عسر لم يعترف بإحسان الله إليه، بل يدعي أنه أُعطي هذا؛ لأنه مستحق له جدير به، وما اعتقد أن القيامة سوف تقوم، وعلى فرض قيام الساعة ظن أن له عند الله جنات النعيم، فسوف يُخبِرُ الله الكفار يوم القيامة بما فعلوه من ذنوب، وسوف يذيقهم العذاب الشديد، على ما اقترفوه من تكذيب بالوعد والوعيد.

٥١ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾

وإذا أنعم الله على الإنسان بعافية أو مال أو جاه ونحو ذلك، تكبر وتجبر على طاعة ربه والانقياد للحق، وإذا أصابته الضراء والبأساء أكثر من الإلحاح في الدعاء والتجأ إلى ربه ليفرج شدته ويزيل كربته؛ فهو يعرف ربه في الضراء ولا يعرفه في السراء.

﴿٥٢﴾ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أخبروني إن كان هذا القرآن وحيًا من عند الله ثم كذبتم به، لا أحد أظلم وأضل منكم؛ لأنكم خالفتم الحق وجانبتم الصواب وابتعدتم عن الهدى بعدًا كبيرًا.

﴿٥٣﴾ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

سَيُطْلِع الله الناس على براهين وحدانيته وقدرته في أقطار السموات والأرض، ويريهم بديع صنعه وعجيب خلقه، ويكشف لهم ما في أنفسهم من أسرار القدرة وعجائب التكوين ما يبهر العقول، حتى يتبين لكل شاك أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ صادق، أو لم يكف الكفار برهانًا على أن القرآن وحي من عند الله، وأن محمدًا ﷺ رسول من عند ربه، شهادة الله على ذلك ولا أكبر من شهادته - سبحانه - شهادة، وهو خير الشاهدين، وقد شهد بأن القرآن حق والرسالة صدق.

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾

ألا إن الكفار في شك وريبة من إحياء الموتى والحساب، ألا إن الله - تعالى - قد أحاط بكل شيء علمًا وحفظًا وتقديرًا وإحصاءً؛ لا تغيب عنه غائبة ولا يخفى عليه أمر عز وجل.

مكية

سورة الشورى

ترتيبها ٤٢ | آياتها ٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿ حمٓ ﴾

القول فيها كالقول في بقية الحروف المقطعة.

﴿٢﴾ ﴿ عٓسٓقٓ ﴾

هذه الحروف المقطعة نكلُ علمها إلى من أنزلها ولا نتكلف لها معنى.

﴿٣﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

كما أُنزل عليك القرآنُ - أيها الرسول - فقد أُنزل على من قبلك من الرسل كتب أوحاها الله إليهم، والله هو العزيز فلا يغالب ولا يحارب، قهر من سواه وأعز من تولاه، وأذل من عاداه، وهو الحكيم في خلقه وصنعه وتدبيره وشرعه.

﴿٤﴾ ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

لله وحده كل ما في السموات وكل ما في الأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا، والله - سبحانه - العلي بذاته وقدره وقهره، قد استوى على عرشه، وهو العظيم في أسمائه وصفاته، له العظمة والكبرياء والعزة.

﴿٥﴾ ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

تكاد السموات السبع من عظمة الله تتشقق، كل سماء فوق التي بعدها على ضخامتها وقوة بنائها، والملائكة ينزهون الله عما لا يليق به، ويثنون عليه بكل المحامد، ويسألونه أن يغفر سيئات بني آدم من المسلمين، ألا إن الله كثير الغفران لمن أناب، رحيم بمن تاب، يصرف عنهم العقاب ويجزل لهم الثواب.

٦ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

والمشركون الذين عبدوا غير الله، الله - تعالى - مُطِّلِعٌ على أعمالهم قد أحصاها وحفظها ليحاسبهم عليها يوم الدين، وما أنت - أيها الرسول - بحفيظ على أعمالهم ولا محص لها حتى تجازيهم عليها، إنما أنت مبلغ عن الله رسالته لتقيم الحجة عليهم، فعليك البلاغ وعلى الله الحساب.

٧ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾

وكما أوحى الله إلى الرسل قبلك - أيها الرسول - فقد أوحى الله إليك قرآنًا بلغة العرب، لتنذر أهل مكة ومن حولها من قرى العالم، وتخوف الناس إن لم يؤمنوا بعذاب يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وهو واقع لا محالة، والعباد في ذلك اليوم طائفتان أهل إيمان في جنات النعيم، وأهل كفر في نار جهنم الموقدة، فمن نصح لنفسه فلينقذها من النار بطاعة الله واتباع رسوله ﷺ والتزود بالصالحات.

٨ ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

ولو أراد الله أن يجمع العباد على الإسلام لفعل ذلك وجعلهم أمة واحدة مهتدية، ولكنه أراد أن يختص من أطاعه واتبع هداه برحمته تفضلاً، وأن يعذب من كفر به وكذب رسله عدلاً، وليس لهم يوم القيامة من يتولى شؤونهم ويدفع عنهم العذاب، فلا شفيع ولا نصير ولا صديق حميم.

٩ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

بل اتخذ الكفار آلهة يعبدونها من دون الله تتولى أمورهم بزعمهم، فالله وحده هو الولي، يتولاه المؤمنون بالعبادة، ويتولاهم بالرعاية والهداية، وهو وحده الذي يحيي الأموات للحساب، وهو على كل شيء قدير، لا يصعب عليه أمر ولا يعجزه شيء سبحانه.

١٠ ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

وكل أمر اختلفتم فيه - أيها العباد - من أمور الدين ومسائل الشرع فالله يحكم فيه ورسوله ﷺ بالرد إلى الكتاب والسنة، ذلكم الحاكم العدل ربي وربكم وخالقنا ورازقنا ومدبر أمورنا، عليه أعتمد، وبه أعتصم، وإليه أفوض أمري، وإليه أعود في كل شأن من شؤوني، فمنه بدايتي وإليه نهايتي وله حياتي ومماتي.

١١ ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

الله وحده هو خالق السموات والأرض، وقد أحسن في خلقهما وأتقن صنعهما، جعل - سبحانه - للرجال نساء من جنسهم البشري ليحصل الاستقرار النفسي والسكون الروحي بين الرجل والمرأة، وجعل - سبحانه - للناس من الأنعام أزواجًا من الذكور والإناث، فبسبب الذكورة والأنوثة يكثر نسلكم ويبقى نوعكم، والله - سبحانه - لا يشبهه شيء من خلقه ولا يماثله لا في ذاته ولا في أسمائه ولا صفاته ولا في أفعاله، فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته جميعها عُلا، وأفعاله كلها حكيمة، وهو السميع لكل صوت وقول، والبصير بكل حال وفعل.

١٢ ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

لله وحده ملك السموات والأرض، وبيده مفاتيح خزائن الرزق والرحمة والعلم، يوسع على من أراد من العباد في الرزق، ويضيق على من أراد، إنه سبحانه عليم بكل شيء، ومن ذلك علمه بمن يستحق الغنى والفقر، والهدى والضلال، والعلم والجهل؛ فيضع كلاً في محلِّه بحكمة.

﴿١٣﴾ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾

شرع الله لعباده من الدين ما أوحاه إلى رسوله ﷺ وهو دين الإسلام، وقد وصى الله بذلك نوحًا من قبل أن يدعو إليه ويعمل به، ووصى بذلك إبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء الرسل الخمسة - عليهم السلام - هم أولو العزم من الرسل، وأمرهم الله - سبحانه - أن يقيموا شعائر الدين بامتثال أوامره واجتناب نواهيه من توحيد وعبادة، ونهاهم - سبحانه - عن الاختلاف في الدين والتنازع؛ لأن في ذلك الفرقة والعداوة، عظم على الكفار ما تدعوهم إليه - أيها الرسول - من التوحيد وإخلاص الطاعة لله، والله يختار للإيمان من عباده من يشاء، ويوفق للهداية من يعود إليه بالتوبة والاستغفار.

﴿١٤﴾ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾

وما تفرق الكفار إلى طوائف وأحزاب في معتقداتهم إلا من بعد ما جاءهم العلم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وقامت عليهم الحجة بذلك بسبب بغي بعضهم على بعض وحسد بعضهم لبعض، ولولا أن الله قدر في قضائه السابق تأخير العذاب عن الكفار إلى يوم القيامة لقضى الله بتعجيل العقوبة للكفار في الدنيا، وإن الذين ورثوا علم التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى لفي شك من الإيمان ورسالة الرسول ﷺ، أوصلهم هذا الشك إلى الريبة والتنازع المحرم والاختلاف المذموم.

﴿١٥﴾ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

فإلى دين الإسلام الذي هو دين الرسل - عليهم السلام - فادع الناس - أيها الرسول -، واستقم على دينه بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه كما أمرك الله ووصاك، فهو العمل بالعلم والاتباع لا الابتداع، ولا تتبع آراء الكفار المضلة، بل اعتصم بالوحي المنزل، فالتمسك بالأثر واطِّراحُ كل رأي يخالفه أصل عظيم، وقل - أيها الرسول -: صدَّقت بكل الكتب التي أنزلها الله على رسله، والله أمرني أن أعدل بينكم في الحكم، فأحكم بشرع الله ولا أجور، الله ربنا وربكم، فالواجب صرف العبادة له وحده، لنا أجر أعمالنا الحسنة، ولكم عقاب أعمالكم السيئة، لا جدال ولا خصومة بيننا وبينكم بعد قيام الحجة وظهور الحق، الله سوف يجمع بيننا جميعًا ليحكم بيننا يوم القيامة فيما وقع فيه الخلاف، إليه نعود فيحاسب كل عامل بما عمل ويجازيه بما فعل.

﴿١٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾

والذين يخاصمون في وحدانية الله التي جاء بها رسوله ﷺ من بعد ما استجاب العباد لله وآمنوا به ووحدوه، حجتهم باطلة، ودليلهم كاذب مردود عند الله، وعليهم غضب من الله لكفرهم وصدهم عن سبيل الله، ولهم في النار عذاب مؤلم موجع.

﴿١٧﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾

الله الذي أنزل القرآن والكتب المنزلة على الرسل من قبل بالصدق، وأنزل الميزان وهو العدل في كل شيء؛ ليتحاكم الناس إليه، وماذا يدريك؛ لعل القيامة دنت واقترب قيامها.

﴿١٨﴾ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾

يستعجل بقيام الساعة الكفار المكذبون بها سخرية واستهزاءً، والمؤمنون خائفون من قيام الساعة لما سمعوا من أهوالها، ويعتقدون أنها حق لا شك في ذلك، ألا إن من شك في قيام الساعة وجادل في ذلك في ضلال بعيد عن الحق.

١٩ ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾

الله لطيف بعباده يوصل لهم المحاب ويصرف عنهم المكاره ويوسع الرزق على من أراد من العباد، ويضيق على من أراد لحِكَم عظيمة. وهو القوي الذي لا يغالب ولا يحارب، ومن قوته خذلانه لمن عاداه، وهو العزيز الذي لا يُضام ملكه، يعز بعزته من والاه ويذل بعظمته من عصاه.

٢٠ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾

من أراد بعمله ما عند الله من أجر في الآخرة فأخلص له العمل وقصده بالسعي فإن الله يزيد له في عمله ويوفقه للطاعات ويضاعف له الحسنات إلى عشرة أمثالها إلى أضعاف كثيرة، ومن أراد الدنيا بعمله ونسي الآخرة ولم يطلب ما عند الله من ثواب فإن الله يعطيه ما قسم له من متاع الدنيا، وليس له عند الله أجر، فقد أعطاه في الدنيا، وهذا هو الخاسر المحروم المخذول.

٢١ ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

ألهؤلاء الكفار شركاء في كفرهم وضلالهم، ابتدعوا لهم من الدين ما لم يشرعه الله؟ ولولا أن الله كتب إمهال الكفار لعاجلهم بالعقوبة في الدنيا وقدم لهم العذاب، وإن الكفار لهم عذاب موجع أليم في نار جهنم.

٢٢ ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾

ترى الكفار يوم الحساب خائفين وجلين من عقاب ما فعلوه من أفعال قبيحة من كفر ومعاص، والعذاب ينالهم ويمسهم بسوء، والمؤمنون الصالحون المطيعون لربهم المتبعون لرسوله ﷺ في بساتين جنات الخلد منعمون مسرورون، لهم في جنات النعيم ما أرادوا مما تشتهيه أنفسهم، والله سوف يغدق عليهم فضله وكرمه؛ ذلك الإكرام والنعيم هو الفوز الذي لا يوصف والظفر العظيم؛ لأنهم حصلوا على كل محبوب مطلوب مرغوب، ونجوا من كل مكروه مبغوض.

٢٣ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴾

ذلك النعيم الذي وعد الله به عباده الصالحين في الجنة هو البشرى التي يبشر الله بها أولياءه الذين أخلصوا له الطاعة ولرسوله ﷺ المتابعة، قل - أيها النبي - للكفار: لا أطلب منكم على تبليغ رسالتي إليكم أجرة ولا ثوابًا، فأجري على الله وحده، لكن أطلب منكم المودة لقرابتي وصلة الرحم بيني وبينكم، فقرابته - عليه الصلاة والسلام - لهم حق البر والإكرام والتقدير إكرامًا له - عليه الصلاة والسلام -، ومن يعمل صالحًا يضاعف الله له ثواب عمله بعشرة أضعاف فأكثر، إن الله كثير الغفران لذنوب من تاب، شكور يثيب من أحسن وأصاب، فلغفرانه يمحو السيئات ولشكره يضاعف الحسنات.

٢٤ ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

بل يقول الكفار: إن الرسول ﷺ اختلق الكذب على الله فادعى أن الله أوحى إليه وأرسله ولم يوح إليه ولم يرسله، ولو فعلت ذلك - أيها الرسول - لطبع الله على قلبك إذا شاء، ويذهب الله الباطل ويزيله ويمحقه، ويحق الحق ويثبته بكلماته التي لا تتبدل ولا تتغير، وبوعده الذي لا يختلف؛ فالباطل مضمحل مهما طال وصال، والحق مؤيد من الله منصور مهما حُورب وردّ، والله يعلم ما في قلوب العباد ويطلع على ما تخفيه النفوس وتضمره الضمائر لا يغيب عنه شيء.

٢٥ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾

والله تعالى هو الذي يتوب على من تاب وعاد إليه وأناب، فيقبل حسناته ويعفو عن سيئاته، والله يعلم ما يعمل العباد من خير وشر، لا يغيب عنه شيء، وسوف يحاسبهم على ذلك.

٢٦ ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾

ويستجيب المؤمنون الصالحون لربهم فيعملون بأوامره ويجتنبون نواهيه، والله يزيدهم من فضله، فيزيدهم لصلاحهم في الهداية والعلم والتوفيق والرزق، ويضاعف لهم الحسنات، والكفار لهم عند الواحد القهار عذاب النار وسوء الدار.

٢٧ ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾

ولو أن الله وسَّع الرزق على بعض الناس لتجبروا وتكبروا وأفسدوا في الأرض وبغى بعضهم على بعض؛ أشرًا منهم بسبب الغنى وبطرًا، ولكن الله يعطيهم ما يكفيهم بتقدير وحكمة، فهو العالم بما يصلح عباده، الخبير بما يناسب كل واحد منهم من غنىً وفقر وصحة وسقم، وهو - سبحانه - بصير برعاية شؤونهم وتدبير أحوالهم وتصريف حياتهم.

٢٨ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

والله وحده هو الذي ينزل الماء من السماء إغاثة للعباد والبلاد من بعد ما يئس الناس من نزول المطر، وينشر الرحمة في خلقه وأرضه، فيغيثهم جميعًا، وهو الولي الذي يرعى شؤون عباده بلطفه ويتولاهم بإحسانه، المحمود في ولايته ورعايته، له صفات المدح والحمد والكمال.

٢٩ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرته ووحدانيته وعظمته خلق السموات والأرض على غير مثال سابق، بهذه السعة والضخامة والإتقان، وما نشر فيهما من أنواع المخلوقات التي تدب فيهما، وهو على جمع الخلق وإعادتهم إليه للحساب يوم الدين إذا أراد قدير، لا يعجزه شيء، ولا يتعذر عليه أمر.

٣٠ ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾

وما أصابكم - أيها العباد - من مصيبة في الدين والدنيا فبسبب ما عملتم من خطايا وكسبتم من ذنوب، ويعفو - سبحانه - عن كثير من ذنوب عباده فلا يؤاخذهم بل يستر ويغفر.

٣١ ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

وما أنتم - أيها العباد - بفائتين على الله ولا معجزينه ولا هاربين من سلطانه، بل أنتم تحت قهره وفي ملكه، وما لكم غير الله ولي يتولى شؤونكم ويصرِّف أموركم، وليس لكم غيره ناصر يدفع عنكم المكاره ويكشف عنكم الكربات.

٣٢ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرة الله الباهرة وقوته القاهرة: السفن الكبار التي تجري على ظهر الماء كالجبال.

٣٣ ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

إذا أراد الله أن يسكن الريح فلا تهب بقوة لتدفع السفن فتقف السفن على ظهر الماء راكدة لا تتحرك، إن في حركة السفن ووقوفها وهبوب الريح وسكونها لبراهين واضحة على قدرة الله ووحدانيته لكل صبار على الطاعات، صبار عن المخالفات، وعلى الأقدار المؤلمات، شكور لربه على الخيرات والهبات.

٣٤ ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾

وإذا أراد الله دمَّر السفن بالغرق في البحر بذنوب الناس، ويتجاوز عن كثير من السيئات، فلا يؤاخذ بها بل يعفو ويصفح.

٣٥ ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ۚ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾

وسوف يتيقن كل من خاصم وجادل في براهين وحدانية الله إذا حلَّ بهم العذاب أنه لا مهرب لهم، ولا محيد ولا ملجأ من هذا العذاب.

﴿٣٦﴾ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾

فما رزقكم الله - أيها العباد - من مال وأبناء وجاه ونحو ذلك فهو متاع زائل في حياتكم الدنيا لا دوام له، ولكن الذي عند الله لعباده الصالحين خير وأبقى، فهو أفضل من متاع الدنيا لكرامته ونفاسته، وأبقى لدوامه واستمراره في جنات الخلد ومقعد الصدق، وهو ما أعده الله لمن آمن به واتبع رسوله ﷺ واعتمد على ربه واعتصم به وفوَّض الأمر إليه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾

وهذا النعيم المقيم لمن ترك كبائر الذنوب وهو ما خبث من الآثام وقبح من المعاصي، وهؤلاء إذا أغضبهم أحد سامحوه وحلموا عليه وصفحوا عنه، فهم أحسنوا مع الخالق ومع المخلوق، فاجتنبوا السوء وغفروا الإساءة.

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

ومن صفات هؤلاء الأبرار أنهم أجابوا دعوة الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ لما دعاهم إلى الإيمان وإخلاص العبادة لله وأدوا الصلاة الواجبة على أتم وجه كما شُرعت، وهم يتشاورون فيما بينهم في أمورهم ولا يستبد أحدهم برأيه عن إخوانه المؤمنين، فهم وصلوا ما بينهم وبين الله بالصلاة، وما بينهم وبين المسلمين بالشورى والنصيحة، ويتصدقون مما تفضل الله عليهم به من رزق ومنه العلم والمال والجاه ونحو ذلك.

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾

وهؤلاء المؤمنون إذا وقع عليهم ظلم ظالم انتصروا منه وأخذوا بقدر مظلمتهم ولم يخنعوا ويستكينوا شأن الجبناء.

﴿٤٠﴾ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وجزاء سيئة المسيء أن يعاقب بمثل إساءته لا يزاد على ذلك، فمن عفا عن المسيء وحلم وصفح ولم يعاقبه، وأصلح العلاقة وأقام الود مع المسيء فثوابه على ربه، فالله جزيل العطاء يضاعف له الأجر ويعظم له الجزاء، إن الله لا يحب من يظلمون الناس فيعتدون عليهم بلا حق، وإذا انتقموا زادوا على حقهم في الانتقام.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾

وأما من انتصر ممن ظلمه وأخذ بحقه فأولئك لا يؤاخذهم الله؛ لأنهم اقتصوا بقدر المظلمة.

﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

إنما يؤاخذ الله من يعتدي على الناس ويهضم حقوقهم ويتجاوز الحق إلى الباطل في معاملتهم ويفسدون في الأرض بلا حق لهم في ذلك، فهؤلاء لهم العذاب الموجع في نار جهنم.

﴿٤٣﴾ ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾

والصابر على الأذى والساتر للسيئة من أهل الهمم العالية والمناقب الحميدة والخصال الشريفة، والله سوف يجعل له ذكرًا حسنًا وثناءً جميلاً وأجرًا عظيمًا.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾

ومن يُغْوِ الله عن الهداية ويصرفه عن الرشد بسبب كفره وبغيه فليس له من يتولى أموره ويرعى شؤونه ومن ينصره على عدوه ويدفع عنه الضرر، وترى الكفار لما شاهدوا عذاب النار، يقولون: هل من طريق إلى النجاة من النار والعودة إلى الدنيا لنؤمن ونعمل صالحًا؟ وهذا مستحيل فقد فات الأوان.

﴿٤٥﴾ ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾

وترى الكفار يوم القيامة يُعْرَضون على النار أذلاء خاضعين ينظرون إلى النار من طرف ذليل ضعيف بنظرة عين خاشعة من شدة الخوف والهوان، وقال المؤمنون لما دخلوا الجنة وشاهدوا الكفار في النار: إن الهالكين الخائبين حقًا

هم من خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلود في نار جهنم، ألا إن الكفار في عذاب مستمر وهوان دائم لا يزول ولا يحول.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾

وما كان للكفار في النار من أنصار يدفعون عنهم عذاب الجبار، ومن يكتب الله عليه الغواية والشقاء فلا طريق إلى الهداية والنجاة، فقد أغلق الله عليه بسبب كفره كل طريق موصلة إلى جنته ورضوانه.

﴿٤٧﴾ ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾

استجيبوا لله - أيها الكفار - بتوحيد الله وإخلاص العبادة له واتباع رسوله ﷺ من قبل أن تقوم الساعة التي لا يمكن ردها ولا تأخيرها عن وقتها، ما لكم - أيها الكفار - من عذاب الله من مهرب ولا مفر ولا مكان ساتر يمكن أن تتنكروا فيه فلا تُعرفوا. وفي الآية وجوب المبادرة إلى التوبة والعمل الصالح وترك التسويف، فإن البقاء ليس مضمونًا، والأيام تتصرف وللتأجيل آفات.

﴿٤٨﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾

فإن أعرض الكفار عن الإيمان وأبوا الاستجابة، فالله لم يرسلك - أيها النبي - لتحفظ أعمالهم وتجازيهم عليها فأنت مبلغ عن الله رسالته، والله إذا وهب الإنسان منه رحمة من صحة وجمال ومال وعيال ورزق ونحو ذلك فرح بذلك وسُرَّ أخذًا بظاهر الحال، وإذا أصاب الله الإنسان بمحنة من مرض وفقر ومصيبة ونحو ذلك بسبب ذنوبه فإنه جاحد لما مر من النعم، لا يذكر إلا النقم، وينسى في الشدة أيام الرخاء.

﴿٤٩﴾ ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾

لله وحده ملك السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، يخلق ما أراد من المخلوقات، يرزق بعض عباده إناثًا من الذرية بلا ذكور، ويرزق من أراد ذكورًا بلا إناث.

﴿٥٠﴾ ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

وإذا شاء - سبحانه - رزقه الذكور والإناث، وبعضهم يجعله عقيمًا لا ذرية له، إن الله عليم بخلقه ولماذا يخلقه، قدير على خلق ما أراد، لا يتعاظمه شيء ولا يعجزه شيء.

﴿٥١﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

وما ينبغي لإنسان أن يكلمه الله مباشرة بلا حجاب ولا واسطة، إلا أن يوحي الله وحيًا عن طريق الملائكة، أو يكلمه الله من وراء حجاب، مثلما كلم موسى - عليه السلام -، أو يرسل رسولاً مثلما أرسل جبريل - عليه السلام - إلى رسولنا ﷺ، فيوحي الملك إلى الرسول ما أراد الله أن يوحيه لا بمجرد هوى الملك، إن الله عليٌّ على خلقه بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، علا قدرًا وقهرًا، حكيم في خلقه وصنعه وحكمه وشرعه، وفي هذه الآية إثبات الكلام لله تعالى على وجه يليق بجلاله سبحانه.

﴿٥٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

وكما أوحى الله إلى الرسل قبلك - أيها النبي - فقد أوحى إليك قرآنًا من عند الله هو في إحيائه للقلوب كالروح للأبدان، ما كنت - أيها الرسول - قبل الوحي تعلم شيئًا من الكتب السابقة ولا الإيمان ولا أمور الشريعة، لكن الله

علمك عن طريق الوحي وأنزل هذا القرآن نورًا يهدي به الله من عباده من أراد، فيخرجهم به من ظلمات الكفر والجهل والشبهات، وإنك - أيها الرسول - لتدل من شاء الله هدايته وترشده إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام، وهذه هداية الدلالة له ﷺ، أما هداية التوفيق فلله وحده.

﴿٥٣﴾ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾

والطريق الذي يرشد إليه الرسول ﷺ هو طريق الله وصراطه المستقيم الذي هدى إليه أنبياءَه والصالحين من عباده، والله الهادي عباده وهو مالك السموات والأرض وما فيهما ومدبرهما على أكمل تدبير، وإليه تعود أمور الخلائق من صلاح وفساد فيحاسبهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

مكية

سورة الزخرف

ترتيبها ٤٣ | آياتها ٨٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿حمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده سبحانه بها.

﴿٢﴾ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

يقسم الله تعالى بكتابه القرآن واضح اللفظ والمعنى، بيّن الدلالة على ما أراد الله سبحانه.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

إن الله أنزل القرآن على الرسول ﷺ بلغة العرب لعل الناس يفهمونه ويتدبرونه ويفقهون معانيه.

﴿٤﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾

وإن القرآن الكريم مكتوب في اللوح المحفوظ، وهو عَليٌّ في قدره وشرفه، محكم في لفظه ومعناه، ليس فيه اختلاف ولا تناقض.

﴿٥﴾ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾

أفنهملكم ونترككم في ضلالكم وغيكم ولا ننزل إليكم القرآن، ولا نرسل إليكم الرسول؛ لأجل إعراضكم عن الهداية وتجاوزكم للحدود بالكفر والذنوب، هذا لا يكون، بل لابد من إقامة الحجة.

﴿٦﴾ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾

وكم أرسل الله في القرون السابقة من نبي يقيم عليهم الحجة، فقد سبقك - أيها الرسول - أنبياء.

﴿٧﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

وما يأتي الكفار السابقين من رسول من عند الله إلا سخروا منه واستهزؤوا به كما فعل قومك معك أيها الرسول.

﴿٨﴾ ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

فأهلك الله المكذبين السابقين وكانوا أشد قوة وبأسًا من قومك أيها الرسول، ومضى عقاب الأولين بأن أهلكوا؛ لأنهم كفروا وكذبوا، وفي هذا تهديد لكفار هذه الأمة بأن يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

﴿٩﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾

وإذا سألت الكفار - أيها النبي -: من الذي خلق السموات الأرض؟ لأجابوك بأن الخالق لهن الله العزيز في ملكه، العليم بخلقه وأمره، المطلع على كل شيء؛ فالكفار يؤمنون بربوبية الله، ويشركون في ألوهيته سبحانه.

﴿١٠﴾ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

الله وحده الذي جعل لكم الأرض - أيها الناس - كالفراش ومهدها وسواها لتعيشوا على ظهرها، وشق لكم فيها طُرقًا ويسّر السير فيها لكسب المعيشة وطلب الرزق؛ لكي تهتدوا بهذه الطرق إلى مطالب الدين والدنيا من علم وتجارة وسياحة ونحوها.

﴿١١﴾ ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

الله الذي نَزَّل من السماء غيثًا فقدره بحساب وحكمة، فلم يجعله طوفانًا يغرق ولا نزرًا قليلاً لا يسد الحاجة، فأنبت الله به الأرض اليابسة وأخرج به من كل الثمرات متاعًا لكم ولأنعامكم، وكما أحيا الله الأرض الميتة بالنبات، يحيي - سبحانه - الأموات فيخرجون من قبورهم للحساب.

﴿١٢﴾ ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾

والله الذي أوجد الأنواع كلها من إنسان وحيوان ونبات وهيأ لكم السفن والأنعام كالإبل والخيل والبغال والحمير ما تركبونه في البر والبحر لمصالحكم.

﴿١٣﴾ ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾

لكي تستووا في ركوبكم على هذه السفن والأنعام وغيرها، ثم تتذكروا فضل الله عليكم بتسخير هذه المخلوقات والمصنوعات، وتقولون: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مطيقين، ولا نستطيع لولا تسخير الله لنا هذه المراكب أن نذللها.

﴿١٤﴾ ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾

وتقولوا - أيضا -: وإنا إلى ربنا يوم القيامة عائدون إليه للحساب.

﴿١٥﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾

وجعل الكفار لله من خلقه نصيبًا وهو الغني عن كل أحد، فقالوا: الملائكة بنات الله زورًا وبهتانًا، ومن طبيعة الإنسان التنكر لنعم الله وجحود أياديه، فهو يعدد النقم وينسى النعم.

﴿١٦﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾

بل تدَّعون - أيها الكفار - أن الله اتخذ مما خلق بنات، وهو الله الأحد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وأنتم لا ترضون بنسبة البنات إليكم، وترون أن الله خصكم بالبنين إكرامًا لكم، وهو كذب منكم وافتراء.

﴿١٧﴾ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾

وإذا أُخبر أحد الكفار بولادة بنت له تغير وجهه واسودّ من قُبح البشارة بالبنت وتراه محزونًا مهمومًا كئيبًا، فكيف تنسبون إلى الله ما لا ترضونه لأنفسكم، تعالى الله عن قولكم علوًا كبيرًا.

﴿١٨﴾ ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾

كيف تنسبون الأنثى إلى الله وهي تربى في الزينة وتجمّل بالحليّ، وهي لا تستطيع أن تظهر حجتها وقت الجدل والخصام لضعفها؟

﴿١٩﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾

وجعل الكفار الملائكة وهم عباد للرحمن - سبحانه - إناثًا وقالوا: هم بنات الله، تعالى الله عن ذلك، أَحَضَر الكفارُ خلق الله للملائكة فيشهدون بعلم ويحكمون أنهم إناث؟! سيكتب الله شهادة الكفار الكاذبة الآثمة ويسألهم عنها يوم القيامة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

وقال الكفار: لو أراد الله أن لا نعبد أحدًا غيره لفعل ولقدّر ذلك علينا، وهذه حجة باطلة وقول كاذب، فهم لم يطلعوا على علم الغيب ولم يعرفوا القضاء والقدر، والله أقام الحجة على الناس بإنزال الكتب وإرسال الرسل، وليس للكفار برهان على قولهم ولا نقل صحيح يؤيد كلامهم، إنما يقولون ذلك ظنًا ووهمًا وكذبًا.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾

هل أنزل الله على الكفار كتابًا قبل القرآن يحتجون به على الرسول ﷺ فهم على بينة مما يقولون، والله لم ينزل عليهم كتابًا، وما عندهم علم وما لديهم دليل، بل هم كاذبون واهمون.

﴿٢٢﴾ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾

بل قال الكفار: إنا وجدنا آباءنا على دين ومذهب سابق فنحن مقلدون لهم سائرون على ملّتِهم لا نخالفهم وسوف نتبع آثارهم.

﴿٢٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾

وكذلك ما أرسل الله قبلك - أيها الرسول - في قرية من رسول يخوفهم عذاب الله، ويدعوهم إلى طاعته وعدم مخالفة أمره إلا قال السادة المترفون وأهل النعم المتجبرون: إنا وجدنا آباءنا على دين سابق ومذهب ثابت فنحن متمسكون بدينهم ومذهبهم لا نتركه لغيره.. وهذا هو التقليد الأعمى المذموم!!

﴿٢٤﴾ ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

قال الرسول ﷺ ومن سبقه من الرسل عليهم السلام لأقوامهم لما ردّوا ما جاؤوا به وتمسكوا بدين الآباء: أتتمسكون بدين آبائكم الباطل، ولو أن ما جئنا به أدلّ على طريق الهداية وأرشد إلى سبيل النجاة من دينكم الباطل؟ فردّوا عليهم عنادًا وكبرًا: إنا بما أرسلكم الله به إلينا مكذبون جاحدون، فهم قلدوا الآباء في الكفر، وردوا الدين الحق وكذبوا رسل الصدق.

﴿٢٥﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾

فانتقم الله من هؤلاء المكذبين خسفًا ومسخًا وتدميرًا وغرقًا وغير ذلك، فتأمل نهاية هؤلاء الجاحدين المكذبين، وليحذر كل مكذب أن يناله ما نالهم فالعمل واحد.

﴿٢٦﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾

واذكر يوم قال إبراهيم - عليه السلام - لأبيه الضال وقومه الكفار: إنني أبرأ إلى الله من كل ما تعبدونه من دونه من آلهة مزعومة باطلة، وهذه البراءة واجبة على كل مسلم، وهي التبرؤ من الكفار وعبادتهم، وعدم موالاتهم والرضا بكفرهم.

﴿٢٧﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾

ولا أعبد إلا الله وحده الذي خلقني وأوجدني من العدم، وهو الذي سوف يرشدني إلى الصراط المستقيم والدين القويم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وجعل إبراهيم كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) كلمة باقية متوارثة فيمن جاء بعده، وهي أعظم رابطة تجمع كل مؤمن بأخيه، لعل الناس يرجعون إلى ربهم بتحقيق كلمة التوحيد وإخلاص العبادة لله والعودة إلى الله بالتوبة والاستغفار وهجر الكفر والذنوب.

﴿٢٩﴾ ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾

بل متَّع الله بالحياة والنعم كفار هذه الأمة وآباءهم ولم يعاجلهم بالهلاك، بل أخَّرهم حتى بعث فيهم رسوله الكريم ﷺ بكتاب الله والسنة يبين لهم الهدى ويدعوهم إلى الإسلام.

٣٠ ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

ولما جاء الكفارَ القرآنُ وحيًا من عند الله على رسوله ﷺ قالوا: هذا القرآن سحر وليس بوحي، وإنا نجحد بالقرآن ولا نؤمن به.

٣١ ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ﴾

وقال الكفار: إن كان هذا القرآن حقا من عند الله فلماذا لم ينزله الله إلى رجل عظيم وجيه ثري من قرية مكة أو الطائف؛ لأن الرسول ﷺ لم يكن صاحب مال وثروة، والتفاخر عندهم والفضل بالدنيا فحسب.

٣٢ ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾

أهؤلاء الكفار يقسمون النبوة ويقترحون وضعها عند من أرادوا، والله أعلم حيث يجعل رسالته؟! وهو الذي يَصْطَفي لها من يشاء من عباده، وهو سبحانه الذي يقسم بين العباد أرزاقهم وأقواتهم وقد يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، أما الرسالة فيختص الله بها من يستحق هذه المنزلة العظيمة والمرتبة العالية، وكذلك الهداية يعطيها الله من أحب من عباده الصالحين، والله يرفع في أمور الدين والدنيا بعض الناس على بعض درجات؛ فعالم وجاهل وغني وفقير وقوي وضعيف وأمير ومأمور وتابع ومتبوع؛ ليكون بعضهم سببًا لبعض في المعاش، ولتقوم الحياة بين الناس، ولو كانوا على طبقة واحدة لاختلَّ النظام، ورحمة الله بالهداية والتوفيق للطاعة والعلم النافع والعمل الصالح أفضل مما يجمعه الناس من حطام زائل فانٍ من المال ومتاع الدنيا.

٣٣ ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴾

ولولا أن يكون الناس كلهم على ملة الكفر لجعل الله لبيوت من يكفر به سقفًا من فضة وسلالم من فضة يصعدون عليها لتفاهة الدنيا وحقارة شأنها، ولكن لئلا يغتر الضعفاء والجهلاء بما يرون من مظاهر وزينة بيوت الكفار فيقلدوهم في الكفر، فلم يجعل الله للكفار هذه الميزة.

٣٤ ﴿ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾

ولجعل الله لبيوت الكفار أبوابًا من فضة، ولجعل لهم سررًا يتكئون عليها.

٣٥ ﴿ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾

ولجعل الله للكفار ذهبًا كثيرًا، وكل ذلك متاع زائل منتهٍ في هذه الدنيا الفانية، أما نعيم الآخرة فَمُعَدٌّ ومُدَّخَرٌ لأولياء الله المتقين الذين عملوا بطاعته وتركوا معاصيه.

٣٦ ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾

ومن يعرض عن ذكر الله، وهو كتابه وسنة الرسول الكريم ﷺ فلم يهتدِ بهما ويعمل بما فيهما، يجعل الله له شيطانًا يضله ويحبب إليه المعاصي ويكرِّه إليه الطاعات، فهو مرافق له ومصاحب يلازمه في ليله ونهاره، ولا يتخلّص من الشيطان إلا بذكر الرحمن.

٣٧ ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾

وإن الشياطين ليمنعون المعرضين عن ذكر الله طريق الهدى، ويحسِّنون لهم الغواية، ويحببون إليهم المعاصي، ويكرهون لهم الطاعة، ويظن المعرضون أتباع الشيطان أنهم على بصيرة من أمرهم وعلى رشد، وهم على غيٍّ وضلالة.

٣٨ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾

حتى إذا عاد إلى الله من أعرض عن ذكره وغرَّه الشيطان الذي لازمه في الدنيا وشاهد مواقف الحساب قال هذا المعرض: يا ليت أن بيني وبينك يا قرين السوء مثلما بين المشرق والمغرب في البعد، فبئس القرين أنت؛ لأنك زيّنت لي الباطل، وقبحت الحق وأغويتني.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

ولن ينفعكم - أيها الكفار - اشتراككم في العذاب مع قرنائكم من الشياطين، فلكل واحد منكم نصيبه الكامل من عذاب الله، ولن يُقَسَّمَ العذاب على عددكم فيخف عليكم.

﴿٤٠﴾ ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

أفأنت - أيها الرسول - تستطيع إسماع من أصم الله سمعه عن الحق، أو إرشاد من أعمى الله قلبه عن الرشد، أو هداية من كان في غي واضح الغواية، وضلال بيِّن الضلالة؟ لا تستطيع ذلك، إنما عليك البلاغ وليس عليك الهدى.

﴿٤١﴾ ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾

فإن توفاك الله - أيها الرسول - قبل أن ينصرك على الكفار فسوف ينتقم منهم بالعذاب في الآخرة.

﴿٤٢﴾ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾

وإن أراك الله ما وعدك من نصر عليهم وخزي لهم كيوم بدر فإن الله قدير على ذلك لا يعجزه شيء... وهذا الذي حصل، فقد نصر الله عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

﴿٤٣﴾ ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

فاستمسك - أيها الرسول - بما أوحاه الله إليك من الكتاب والسنة، واعمل به وادع إليه، فإنك على هدى قويم هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره.

﴿٤٤﴾ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾

وإن القرآن شرف لك - أيها الرسول - ولقومك من قريش، وهو عز ورفعة ومجد لكل من اتبعه وعمل بما فيه، وسوف يسألكم الله يوم القيامة عن العمل بما أنزله إليكم وشكر ما أنعم به عليكم.

﴿٤٥﴾ ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾

واسأل - أيها الرسول - أتباع الرسل الذين أرسلهم الله قبلك في الأمم السابقة: هل دعتهم رسلهم إلى عبادة غير الله؟ بل إن جميع الرسل كانوا يدعون إلى توحيد الله وأن لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

ولقد أرسل الله موسى - عليه السلام - بالبراهين القاطعة إلى فرعون وسادة قومه، كما أرسل الله محمدًا ﷺ إلى قومه، فقال موسى لفرعون وقومه: إن الله رب العالمين أرسلني إليكم لأدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الطاعة له.

﴿٤٧﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾

فلما أتى موسى إلى فرعون وقومه بالبراهين الدالة على قدرة الله ووحدانيته وصدق موسى في دعوته إذا فرعون وسادة قومه يضحكون سخرية مما جاء به موسى واستهزاءً بالمعجزات والعبر.

﴿٤٨﴾ ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وما يري الله فرعون وقومه من برهان إلا كان أعظم مما قبله وأكثر دلالة على صدق ما جاء به موسى، وأخذ الله فرعون وقومه بأنواع العقوبات كالجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان وغيرها، لعلهم يعودون إلى توحيد الله وطاعته ويرجعون عن كفرهم ومعاصيهم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾

وقال فرعون وسادة قومه لموسى: يا أيها الساحر (يقصدون تبجيله بذلك؛ لأن وصف السحر عندهم وصف معظم وليس وصف ذم) ادع ربك الذي اختصك وآثرك واجتباك أن يزيل عنا العذاب فإننا مصدقون بما أُرسِلت به مؤمنون بالله.

﴿٥٠﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾

فلما دعا موسى ربه أن يرفع العذاب عن فرعون وقومهٌ رفعه الله عنهم لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الغدر ونكث العهد والعودة إلى الكفر والضلال.

﴿٥١﴾ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

ونادى فرعون في سادة قومه - متكبرًا متجبرًا متفاخرًا بملك مصر -: أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ وقصد اللعين أن من هذا حاله فهو جدير أن يُعبد، وقال لقومه: ألا تبصرون عظمة ملكي وقوة سلطاني وضعف موسى وقلة ذات يده؟

﴿٥٢﴾ ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

بل أنا أفضل من موسى الذي لا مكانة له ولا شرف ولا سيادة، فهو يمتهن نفسه في معيشته وكسب رزقه، وإذا تكلم لم يفهم منه السامع لعجمة في لسانه، فتبجح فرعون بأمور الدنيا الظاهرة من المكانة والفصاحة، ونسي أن نبوة موسى وعلمه النافع وعمله الصالح أصدق وأنفع مما يقول.

﴿٥٣﴾ ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾

فلماذا لا يُعطى موسى - إن كان صادقًا أن الله أرسله - أسورة من ذهب يستغني بها عن الفقر والحاجة؟ ولماذا لم يأت معه الملائكة قد اقترن بعضهم ببعض يتتابعون فيشهدون بصدقه وينصرونه؟

﴿٥٤﴾ ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

فاستخف فرعون بكلامه عقول قومه فأغواهم فوافقوه على ضلالته وكفروا بما جاء به موسى، إن قوم فرعون كانوا خارجين عن طاعة الله وعبادته فلفجورهم، قبلوا دعوة الضال المضل فرعون.

﴿٥٥﴾ ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فلما أغضبوا الله بكفرهم وتكذيبهم موسى انتقم منهم بأشد العقوبة، وعاجل العذاب، فأغرقهم كلهم في البحر وسلبهم ملكهم.

﴿٥٦﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾

فجعل الله فرعون وقومه بعدما أغرقهم سلفًا متقدمًا لمن يعمل مثل عملهم ممن يأتي من القرون، فيكون جزاؤه كجزائه، وجعلهم عبرة وعظة لكل جيل قادم إلى قيام الساعة.

﴿٥٧﴾ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾

ولما ضرب الكفار مثلاً بعيسى بن مريم حين جادل الرسول ﷺ بأن النصارى يعبدون عيسى عليه السلام ففرح الكفار بهذا المثل وظنوه حجة لهم، وارتفع لهم صوت وجلبة وضجيج؛ لأنه لما أنزل الله قوله: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ قال الكفار: فعيسى مع آلهتنا في النار؛ لأن النصارى عبدوه مثلما عبدنا آلهتنا، وأنزل

الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فالذي يعذب بالنار هم الآلهة ومن عبدوهم وعيسى لم يرض أن يكون إلاها من دون الله.

٥٨ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾

وقال الكفار: هل آلهتنا التي عبدناها أفضل من عيسى الذي يعبده قومه؟ فإذا كان عيسى يُعذب في النار فنحن راضون أن نكون مثله نعذب بالنار، وهذا جدل عقيم وكلام فاسد باطل.

٥٩ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾

ليس عيسى بن مريم - عليه السلام - إلا عبدًا من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة وفضله بالرسالة، وجعله آية وعبرة لبني إسرائيل يستدلون بها على قدرة الله وعظمته.

٦٠ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾

ولو أراد الله لجعل مكان الناس ملائكة يعيشون في الأرض يعمرونها يخلف بعضهم بعضًا.

٦١ ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾

وإن نزول عيسى - عليه السلام - في آخر الزمان لبرهان على دنو القيامة، فلا تشكوا في قيام الساعة واتبعوا الرسول ﷺ فيما دعاكم إليه وأخبركم به، هذا هو الطريق القويم والصراط المستقيم الموصل لرضوان الله وجنته.

٦٢ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾

ولا يمنعنكم الشيطان بتزيينه للغواية والباطل عن طريق الهداية، فإن الشيطان عدو لكم بيّن العداوة، يحبب إليكم الشر ويكره إليكم الخير.

٦٣ ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

ولما أتى عيسى إلى بني إسرائيل بالبراهين الظاهرة قال لهم: قد آتيتكم بالرسالة ولأوضِّحَ لكم بعض ما اختلفتم فيه من أمور الدين، فاتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه، وأطيعوني فيما بينته لكم ودعوتكم إليه .

٦٤ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾

إن الله وحده هو ربي وربكم، وهو خالقنا جميعًا ورازقنا، فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالوحدانية، ولا تشركوا به شيئًا، هذا الذي دعوتكم إليه ونصحتكم به هو الطريق القويم إلى خيري الدنيا والآخرة.

٦٥ ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾

فاختلفت الطوائف في شأن عيسى، وصاروا مذاهب شتى: منهم من يرى أنه عبد ورسول من عند الله وهو الصحيح، ومنهم من يرى أنه ابن الله، ومنهم من يرى أنه الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فاللعنة والعذاب والغضب على من وصف عيسى بغير ما وصفه الله به، وعذاب أليم لكل من خالف الصراط المستقيم.

٦٦ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

هل تنتظر الطوائف المخالفة في عبودية عيسى ونبوته إلا أن تأتيهم القيامة فجأة على غرة غير مستعدين لها لا يدرون متى قيامها؟

٦٧ ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

الأصدقاء المتحابون على معصية الله في الدنيا يتبرأ بعضهم من بعض يوم الحساب، لكن إذا تصادقوا وتحابوا على طاعة الله بقيت هذه المحبة ونفعتهم في الدنيا والآخرة.

﴿٦٨﴾ ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾

يُقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله: يا عبادي، لا تخافوا من عذابي ولا تحزنوا على ما ذهب منكم من متاع الدنيا، فلا خوف من المستقبل ولا حزن على الماضي.

﴿٦٩﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾

وهؤلاء المتقون هم من آمن بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وانقاد لحكم الله وخضع بقلبه وجوارحه لشريعة الله.

﴿٧٠﴾ ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴾

يُقال لهم يوم القيامة: ادخلوا الجنة منعمين مسرورين مع الزوجات والذرية والأصدقاء، منعمين غاية النعيم في قرة عين وراحة بال.

﴿٧١﴾ ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

يُطاف على هؤلاء المؤمنين في جنات النعيم بأوان من ذهب فيها ألذ الطعام وأهنؤه وأمرؤه، ويُطاف عليهم بالأكواب من الذهب فيها أحلى الشراب وألذه، وفي الجنة ما تشتهيه النفوس ويلذ منظره العيون، ويبهج الأرواح مع الإقامة الدائمة والبقاء المستمر.

﴿٧٢﴾ ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

وهذه الجنة التي أورثكم الله إياها وأسكنكم فيها بسبب ما عملتموه من الطاعات وقدمتموه من الصالحات، فالله جعل الجنة جزاءً لكم، تفضلاً منه ورحمة، ولولا رحمته ما دخل الجنة أحد بعمله.

﴿٧٣﴾ ﴿ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾

لكم - أيها الأبرار - في جنات النعيم فاكهة مختلفة الأنواع من شتى الأصناف تأكلون منها ما تشتهون.

﴿٧٤﴾ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾

إن الفجار الكفار خالدون في عذاب النار؛ لأنهم عصوا الجبار وخالفوا النبي المختار.

﴿٧٥﴾ ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾

لا يخفف عن المجرمين العذاب وهم آيسون في النار من رحمة الواحد القهار، فلا أمل لهم في النجاة ولا طريق لهم إلى الرحمة.

﴿٧٦﴾ ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وما ظلم الله هؤلاء الفجار حين عذبهم ولكن ظلموا أنفسهم بكفرهم لربهم.

﴿٧٧﴾ ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾

ونادى الفجار في النار بعد أن أدخلهم فيها الملك الجبار: يا مالك - وهو خازن النار - اسأل ربك أن يميتنا فنستريح من العذاب، فرد عليهم مالك: إنكم باقون في العذاب لا خروج لكم، ولا تخفيف عنكم، ولا رحمة تنالكم.

﴿٧٨﴾ ﴿ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾

لقد أرسل الله إليكم رسوله ﷺ بالحق وبيّن لكم الهدى، ولكن أكثركم أبى، وأكثركم كره الحق ورده.

﴿٧٩﴾ ﴿ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴾

بل أحكَم الكفار أمرًا يكيدون به الرسول والحق الذي بُعث به، فالله محكم الكيد لهم ومدبر العذاب الذي ينتظرهم.

﴿٨٠﴾ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾

أيظن الكفار أن الله لا يسمع ما يسرونه في أنفسهم وما يتناجون به فيما بينهم من كلام؟ بلى، فالله يسمع ويعلم ويطلع، لا تخفى عليه خافية، ورسله من الملائكة الكرام يكتبون أقوالهم وأعمالهم ليحاسبهم الله عليها يوم القيامة.

﴿٨١﴾ ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾

قل - يا محمد - للكفار المدعين كذبًا وزورًا أن الملائكة بنات الله: ما كان له - سبحانه - من ولد، فإنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وأنا أول عابد له - عز وجل - وأول منكر لما تَدَّعُونه من كذب، فتعالى الله عن الصاحبة والولد والشريك والظهير.

﴿٨٢﴾ ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

تنزه الله وتقدس وتعالى، فهو رب السموات والأرض وخالقهن ومدبرهن، وهو رب العرش العظيم، تنزه عما وصفه به الكفار من نسبة الصاحبة والولد إليه، وجعل الشريك معه، ووصفه بالوصف الباطل تقدس اسمه.

﴿٨٣﴾ ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

فاترك - أيها الرسول - هؤلاء الكفار يخوضوا في الباطل، ويلعبوا في الدنيا حتى يلاقوا يوم الحساب الذي وعدهم الله فيه بأشد العذاب، أو ما وعدهم الله في هذه الدنيا من عقوبة وذل وهزيمة .

﴿٨٤﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾

والله وحده المعبود بحق لا إله إلا هو ولا رب سواه في السماء والأرض، وهو مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله، حكيم في خلقه وصنعه وتدبيره وشرعه، عليم بما خفي أو ظهر وما أسر به العبد أو جهر.

﴿٨٥﴾ ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

وتكاثرت بركات الله وعم خيره وعظم مجده وتقدس اسمه الذي له وحده ملك السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، وهو المدبر المصرف المتفرد بالخلق والرزق، وعنده وحده علم الساعة متى يحين وقتها وإليه تعود الخليقة؛ فيحاسبهم ويجازيهم بما عملوا إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿٨٦﴾ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

ولا تملك الآلهة الباطلة التي تُعبد من دون الله شفاعة لمن عبدها، إنما الشفاعة لمن شهد بالحق وأخلص التوحيد لله واتبع رسوله ﷺ، وهم يعلمون حقيقة ما شهدوا به وأقروا عليه.

﴿٨٧﴾ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

ولئن سألت الكفار - أيها الرسول -: من الذي خلقكم؟ لقالوا: الله خلقنا، فكيف يعبدون غير الله وهو خالقهم وكيف يشركون به سواه وهو الذي أوجدهم وحده؟!

﴿٨٨﴾ ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

وقال الرسول ﷺ داعيًا ربه شاكيًا الكفار الذين كذبوه: يا ربِّ إن هؤلاء الكفار كذبوني ولم يؤمنوا بما أرسلت به وردوا دعوتي.

﴿٨٩﴾ ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

فاصفح - أيها الرسول - عنهم وأعرض عن أذاهم وواجههم بالسلام الذي هو ترك الانتقام منهم والموادعة لهم، وهو فعل الأبرار العقلاء مع الجهلاء السفهاء، فإنهم لا يقابلونهم بالسوء ولا يَسْفَهون كَسَفَهِهِم، وسوف يعلم الكفار ما ينتظرهم من عقاب يوم الحساب.

مكية

سورة الدخان

ترتيبها ٤٤ | آياتها ٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿حمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها.

﴿٢﴾ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

أقسم الله بالقرآن البينة معانيه، الفصيحة ألفاظه، الفاصل في أحكامه، الصادق في وعده ووعيده.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾

إن الله أنزل القرآن في ليلة القدر التي بارك الله فيها من كثرة الخيرات ومضاعفة الحسنات والعفو عن السيئات، وهي في العشر الأواخر من رمضان، إن الله ينذر العباد لما فيه نفعهم وصلاحهم ويحذرهم مما فيه الضرر عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ لئلا يحتج المكذب بأن لا رسالة ولا رسول.

﴿٤﴾ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

في ليلة القدر يُفرض في اللوح المحفوظ كل أمر محكم ثابت من الآجال والأرزاق في تلك السنة، وكذلك ما يجري فيها من الحوادث بلا تغيير ولا تبديل.

﴿٥﴾ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾

وهذا الأمر المحكم والقضاء النافذ بأمر من عند الله، فكل شيء بقضاء الله وقدره، وكل ما يوحيه إلى رسله فبإذنه وعلمه، إن الله يرسل الرسل إلى الناس مبشرين ومنذرين.

﴿٦﴾ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

وإرسال الرسل من الله رحمة لمن أرسلهم إليهم من العباد؛ لأن الرسل يرشدون الناس إلى أقوم السبل، ويزكُّونهم من الآثام والذنوب، والله - سبحانه وتعالى - سميع لكل الأصوات والحركات، عليم بكل الأقوال والأفعال والأحوال.

﴿٧﴾ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾

والله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، فإن كنتم موقنين بذلك معتقدين صحته من أنه الرب الخالق المدبر فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا.

﴿٨﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

لا إله يستحق العبادة إلا الله وحده لا شريك له، وإلى هذا دعا الرسل جميعًا وهي كلمة التوحيد، وهو - سبحانه - المحيي المميت، وهو خالق الناس وخالق آبائهم الأولين، فهو المستحق للعبادة الذي يجب إخلاص الطاعة له واتباع رسوله والاهتداء بكتابه.

﴿٩﴾ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾

بل الكفار في شك من القرآن وفي ريبة من الرسول، وهم في غفلة يلعبون في دنياهم ويلهون في شهواتهم ولا يدرون ماذا ينتظرهم.

﴿١٠﴾ ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾

فانتظر - أيها الرسول - لهؤلاء الكفار يومًا تُغطى السماء فيه بدخان منتشر كثيف واضح يراه الناس.

﴿١١﴾ ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

هذا الدخان يغشى الناس ويقال لهم: هذا عذاب مؤلم موجع بسبب ذنوب العباد.

﴿١٢﴾ ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾

فإذا رأى الناس الدخان الكثيف قد غطاهم نادوا ربهم: ربنا اكشف عنا العذاب، فإذا كشفته عنا صدقنا برسولك وآمنا بكتابك.

﴿١٣﴾ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾

كيف يكون لهم الاتعاظ والاعتبار بعد نزول العذاب وقد كَذَّبوا الرسول ﷺ وقد جاء بحجة بينة ومعجزة ظاهرة وهو القرآن.

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾

ثم أعرض الكفار عن تصديق الرسول ﷺ وقالوا: أخذ علمه من الناس أو من الكهان أو من الشياطين، وهو مجنون ولم يرسله ربه.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾

إن الله سوف يرفع العذاب عن الكفار قليلاً، وسوف يرجع الكفار إلى ما كانوا فيه من التكذيب والكفر والعناد وهذا في الدنيا.

﴿١٦﴾ ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾

يعذب الله الكفار أشد العذاب يوم القيامة بإدخالهم النار، إن الله سريع الانتقام شديد الأخذ قوي البطش.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾

ولقد امتحن الله قبل كفار هذه الأمة قوم فرعون، فأرسل إليهم موسى - عليه السلام - الوجيه عند ربه الكريم على مولاه، وكذبوه وحاربوه وآذوه، فأهلكهم الله، وهذه سنة الله في كل من كذب رسله.

﴿١٨﴾ ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾

وقال موسى لفرعون وقومه: سلموا إليّ قوم بني إسرائيل وأرسلوهم معي ليستطيعوا عبادة الله وحده؛ لأنهم كانوا مضطهدين في مصر، وقال موسى: إن الله أرسلني برسالته، أمينا على وحيه لأبلّغكم دعوة التوحيد.

﴿١٩﴾ ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾

ولا تتكبروا على الله وتخالفوا أمره وتكذبوا رسوله، إني جئتكم بدليل واضح ومعجزة ظاهرة على صحة ما أرسلت به.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾

وقال موسى: وإني اعتصمت بالله واستجرت به وهو الذي خلقني وخلقكم أن تقتلوني رميًا بالحجارة.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾

وإذا لم تصدقوني وتؤمنوا بما أرسلت به فاتركوا إيذائي وخلوا سبيلي وكفوا عن محاربتي.

﴿٢٢﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾

فدعا موسى ربه لما رد فرعون وقومه دعوته فقال: يا ربي، إن هؤلاء قوم كفار فجار فانتقم منهم.

٢٣ ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾

فأمره ربه أن يسري بعباده بني إسرائيل في ظلام الليل؛ ليكون أستر لهم، فإن فرعون وجنوده سوف يتبعونهم، وسوف ينجي الله المؤمنين ويغرق الكافرين.

٢٤ ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾

واترك يا موسى البحر ساكنًا على حالته التي كان عليها حين عبرته لا يضطرب ولا يتحرك؛ ليدخله فرعون وقومه فيغرقهم الله فيه.

٢٥ ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

كم ترك فرعون وقومه بعد هلاكهم من بساتين خُضْر وحدائق غناء وعيون جارية بالماء .

٢٦ ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾

وكم ترك فرعون وقومه بعد الهلاك زروعًا وأشجارًا مثمرة وقصورًا شاهقة ودورًا جميلة.

٢٧ ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾

وكم تركوا وراءهم من عيشة رغيدة كانوا فيها منعمين مترفين ولكنهم كفروا فدُمروا، والذنوب تزيل النعم وتحل بسببها النقم.

٢٨ ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾

بمثل هذه العقوبة يعاقب الله كل كافر مكذب، وأورث الله النعيم الذي تركه فرعون وقومه قومًا آخرين من بني إسرائيل.

٢٩ ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾

فما بكت السماء والأرض حزنًا على فراق فرعون وقومه وقد كانوا أتفه وأحقر من ذلك، وما كان الله ليؤخرهم عن العقوبة التي قدرها لهم بل وقعت في وقتها.

٣٠ ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾

ولقد نجّى الله بني إسرائيل من عذاب فرعون الذي سامهم به من قتل الأبناء واستخدام النساء.

٣١ ﴿ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

وعذاب بني إسرائيل كان صادرًا عن فرعون الجبار المتجاوز لحدود الله، المسرف في الذنوب، صاحب العدوان والطغيان.

٣٢ ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

ولقد اصطفى الله بني إسرائيل على الأمم في زمانهم، فجعل النبوة فيهم والعلم والحكمة.

٣٣ ﴿ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾

وأعطى الله بني إسرائيل من المعجزات الباهرة على يد موسى ما فيه اختبار وامتحان لهم بالرخاء والشدة والعسر واليسر؛ ليعلم الشاكر من الكافر.

٣٤ ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴾

إن هؤلاء الكفار من قومك - أيها الرسول - ليقولون:

٣٥ ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾

ما هي إلا هذه الموتة التي نموتها وهي الأولى والأخيرة، ولا بعث بعدها ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب؛ كذبًا منهم وزورًا.

﴿٣٦﴾ ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

ويقول الكفار: إن كنتم صادقين - أيها المؤمنون - أن الله يبعث من في القبور فأحيوا لنا آباءنا الذين ماتوا.

﴿٣٧﴾ ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾

أهؤلاء الكفار أفضل أم قوم تبع الحميري والذين سبقوهم من الأمم المكذبة أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم، فليس هؤلاء الكفار أفضل من أولئك فينجون من عقوبة الله، ويسلمون من عذابه، بل مصيرهم واحد.

﴿٣٨﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾

وما خلق الله السموات والأرض وما بينهما لعبًا ولهوًا بل لحكمة عظيمة ولمقصد جليل.

﴿٣٩﴾ ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق الذي سنه في الخلق والتدبير والإحياء والإماتة، ولم يخلقهما عبثًا، فهو منزه عن ذلك - سبحانه -، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق في ذلك، فهم جهلاء معرضون لا يتدبرون ولا يعتبرون بما يرونه من الآيات ويسمعونه من العظات.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

إن يوم القيامة الذي يقضي الله فيه بين الخلائق فيثيب المحسن ويعاقب المسيء موعد للخليقة سوف يقع لا محالة.

﴿٤١﴾ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

يوم لا ينفع صاحب صاحبه ولا ينصر صديق صديقه ولا يدفع قريب عن قريبه ضرًا.

﴿٤٢﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

إلا من رحم الله من أوليائه فإن بعضهم قد يشفع لبعض إذا أذن الله للشافع ورضي عن المشفوع له، إن الله هو العزيز في ملكه وحكمه، القوي في انتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه الذي يصرف عنهم المكاره ويتحبب إليهم بالنعم.

﴿٤٣﴾ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾

إن شجرة الزقوم وهي شجرة تخرج في أصل النار.

﴿٤٤﴾ ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾

إن ثمر هذه الشجرة طعام للفاجر الكافر كثير الآثام.

﴿٤٥﴾ ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾

وثمر شجرة الزقوم كالقطران أو النحاس أو الفضة التي أوقد عليها حتى ذابت، يغلي في بطون الكفار، ويقطع أمعاء الفجار.

﴿٤٦﴾ ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾

وغلي ثمر الزقوم في بطون المجرمين كغلي الماء شديد الحرارة.

﴿٤٧﴾ ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾

خذوا - أيها الزبانية - هذا الكافر الفاجر فادفعوه إلى النار، وسوقوه إلى غضب الجبار، وضعوه في وسط جهنم مع الأشرار.

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾

ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر الماء المغلي شديد الحرارة يشوي جسمه ويمزق جلده.

﴿٤٩﴾ ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾

يقال لهذا الفاجر الكافر: ذق هذا العقاب الشديد والعذاب الأليم إنك أنت العزيز في قومك، الكريم في مكانتك؛ تهكمًا وسخرية منه.

﴿٥٠﴾ ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾

إن هذا العذاب الذي حل بالكفار في النار هو العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدنيا.

﴿٥١﴾ ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾

إن الذين اتقوا الله بطاعته واجتناب معصيته في مقعد صدق يأمنون فيه من الآفات ويجدون فيه جميع أنواع المسرات.

﴿٥٢﴾ ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾

في جنات خُضْر وبساتين فيحاء مع قرة عين وسرور ونعيم وحبور، وعيون بالماء العذب الزلال تجري من تحت الأشجار.

﴿٥٣﴾ ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾

هؤلاء الأبرار يلبسون رقيق الديباج وغليظه، قد تقابلوا بوجوههم، ينظر بعضهم إلى بعض، يجري بينهم أحسن الحديث وأنفع الكلام.

﴿٥٤﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾

ومثلما أنعم الله على هؤلاء الأبرار بالكرامة بالجنات بأنواع المسرات والخيرات، أكرمهم بالزواج من الحسناوات الجميلات ذوات العيون الواسعات.

﴿٥٥﴾ ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾

يطلب الأبرار في الجنة ما أرادوا من شتى الفواكه وأصناف الثمار، وقد أمنوا من انقطاع النعيم وفنائه، وأمنوا من كل خوف وآفة.

﴿٥٦﴾ ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾

لا يذوق الأبرار في دار القرار الموت، فهم خالدون أبدًا في نعيم الجنة، فليس لهم إلا موتة واحدة، وهي الموتة التي ذاقوها في الدنيا، وحمى الله هؤلاء الأبرار من عذاب النار.

﴿٥٧﴾ ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

وهذا النعيم الذي أنعم الله به على أوليائه في الجنة تفضلاً منه وإحسانًا وكرمًا ومنّة، وهو الظفر الذي ما بعده ظفر، وهو نيل أشرف المطالب وأرفع المراتب.

﴿٥٨﴾ ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

فإنما سهَّل الله لفظ القرآن ويسَّر معانيه بلغة العرب التي هي لغة الرسول ﷺ لعلهم يفهمون هذا الكلام فيفقهون معانيه ويتعظون بزواجره وينتفعون بأحكامه.

﴿٥٩﴾ ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾

فانتظر - أيها الرسول - ما وعدك الله به من نصر على الكفار وعقاب للفجار، إن الكفار ينتظرون موتك ويتربصون بك الدوائر، وسوف يعلمون لمن يكون النصر والظفر والتأييد والتمكين، وقد ظهر ذلك كله وحصل لرسولنا ﷺ ولأتباعه إلى يوم القيامة جعلنا الله منهم.

مكية

سورة الجاثية

ترتيبها ٤٥ | آياتها ٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿حمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها.

﴿٢﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

هذا القرآن أنزله الله وحيًا على رسوله ﷺ والله هو العزيز في ملكه وحكمه، يعز من والاه ويذل من عاداه، الحكيم في خلقه وصنعه وفي تدبيره وشرعه.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

إن في خلق السموات السبع وخلق الأرض لبراهين واضحة يتفكر فيها المؤمنون بالله ورسوله فيزدادون إيمانًا.

﴿٤﴾ ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

وفي خلق البشر وما خلق الله من كل دابة تدب على وجه الأرض براهين ظاهرة لكل من أيقن بوحدانية الله وآمن برسوله واتبع شرعه.

﴿٥﴾ ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما على العالم، وما أنزل الله من السماء من ماء جعله سببًا لإحياء الأرض بعد الجدب بأنواع الثمار والأزهار والزروع، وفي تصريف الله للرياح من كل النواحي والتي جعلها الله سببًا لمنافع الناس من تلقيح الثمار وسوق السحاب في ذلك كله براهين ظاهرة لقوم يعقلون عن الله آياته؛ فيتدبرون ويفقهون.

﴿٦﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾

هذه البراهين يتلوها الله على رسوله ﷺ بالحق والصدق؛ لتقوم الحجة وتبطل أعذار الكفار، فبأي كلام بعد الكلام الذي أنزله الله على رسوله ﷺ وبأي براهين بعد البراهين الساطعة التي أقامها الله في الكون وأنزلها في الكتاب يؤمن الكفار ويصدق الفجار إذا لم يؤمنوا بها ولم يصدقوا؟!

﴿٧﴾ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾

هلاك ودمار ولعنة ونار لكل كذاب مفتر كثير الذنوب مرتكب للآثام.

﴿٨﴾ ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

هذا الكذاب المفتري يسمع آيات القرآن وهي تُقرأ عليه، ثم يستمر في طغيانه وفي تكذيبه متعاظمًا في نفسه، يأبى الخضوع لله، ويعرض عن الإيمان واتباع الرسول ﷺ، كأنه ما سمع الآيات التي تُتلى عليه سماع قبول واستجابة، فحاله قبل سماع القرآن وبعده سواء فبشر - أيها الرسول - هذا الأفاك الأثيم بعذاب أليم في نار الجحيم.

﴿٩﴾ ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

وإذا علم هذا الكذاب المفتري من آيات الله شيئًا جعلها سخرية منه واستهزأ بها وضحك منها؛ لانطماس بصيرته وفجوره، ومَنْ هذا شأنه فله عذاب الخزي والهوان والعار جزاءً على استهزائه بآيات الواحد القهار.

١٠ ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

من أمام الكفار المستهزئين بالقرآن النار تنتظرهم بعذابها وأنكالها وأغلالها، ولا يدفع عنهم العذاب ما جمعوه من مال ولا ما خلّفوه من أولاد، ولا تشفع لهم ولا تنفعهم أصنامهم التي عبدوها من دون الله، ولهم أشد العذاب في نار جهنم.

١١ ﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

هذا القرآن الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ يهدي به الله من الضلالة، ويعلم به من الجهالة، ويُبَصِّر به من العمى، وهو يهدي إلى صراط مستقيم، فمن اتبعه وعمل بما فيه نال الهدى والنجاة، وأدرك الفوز والفلاح، والذين كذبوا بالقرآن واستهزؤوا بآياته ولم يقبلوا هداه لهم عذاب من أشد أصناف العذاب ومن أفظع أنواع النكال في نار جهنم.

١٢ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

الله وحده هو الذي سخر للناس البحر لتسعى السفن بركابها وحمولتها على ظهر البحر بأمر الله، وليطلب الناس أرزاقهم وتجارتهم بهذه السفن في البحر لعلهم يشكرون الله بطاعته وحسن عبادته، فيفردوه بالألوهية ويخلصوا له الوحدانية مع طاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه.

١٣ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وسخر الله لعباده كل ما في السموات من شمس وقمر ونجوم وكواكب وسحاب، وسخر كل ما في الأرض من حيوان ونبات وجماد لمنافع العباد، وكل هذه الخيرات تفضل الله بها على الناس ليشكروه ويخلصوا له العبادة، إن فيما سخره الله لبراهين ظاهرة على قدرته - سبحانه وتعالى - ووحدانيته وعظمته لكل من تفكر واعتبر بهذه البراهين وانتفع بها.

١٤ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

قل - أيها الرسول - لمن آمن بالله واتبع رسوله واهتدى بهداه يعفون عن الكفار الذين لا يريدون ثواب الله ولا يرجون رحمته ولا يخافون عذابه، وليحلم هؤلاء المؤمنون على أولئك الفجار إذا نالوهم بأذى أو مكروه، فإن الله سوف يتولى حسابهم وعذابهم على ما فعلوه بالمؤمنين من كيد ومكر وأذى.

١٥ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

من عمل من المؤمنين عملاً صالحًا خالصًا لوجه الله على سنة رسول الله فنفع ذلك عائد إليه، ومن أساء العمل وعصى الله وخالف رسوله ﷺ فضرر ذلك عائد إليه لا إلى غيره، وسوف يعود العباد جميعا إلى الله يوم المعاد؛ ليجازيهم على ما فعلوا إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

١٦ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

ولقد أعطى الله بني إسرائيل التوراة التي أنزلها على موسى والإنجيل الذي أنزله على عيسى وأعطاهم الحكم بين الناس ومعرفة الأحكام، وبعث أكثر الأنبياء منهم، ورزقهم من خيرات الأرض من أنواع الثمار وأصناف الأقوات ومختلف الأطعمة، وفضلهم الله على عالم زمانهم.

١٧ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

وأعطى الله بني إسرائيل براهين ظاهرة من الأحكام المنزلة في الحلال والحرام والمأمور والمنهي عنه مع بيان الحق والباطل، فما اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم وتنازعوا إلا بعد ما جاءهم العلم ووضح لهم البرهان وأُرسلت إليهم الرسل؛ وسبب ذلك أن بعضهم بغى على بعض وحسده وترفع عليه؛ طلبًا للجاه في الدنيا والتصدر والرئاسة؛ فعلماء

الدنيا يتحاسدون وعلماء الآخرة يتحابون، إن الله - سبحانه - سوف يحكم بين المختلفين يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فينجي الأبرار ويهلك الفجار.

﴿١٨﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ثم جعلك الله - أيها الرسول - خاتمًا للأنبياء والرسل على دين قويم ومنهج عظيم وصراط مستقيم، فاتبع ما أوحاه الله إليك واعمل به وادع إليه، ولا تتبع أهواء الجهلاء والضالين المعرضين عن الكتاب والسنة الذين لا يعلمون الحق ولا يعملون به ولا يدعون إليه. وفي هذه الآية برهان على كفاية الشريعة لكل مسلم ووجوب اتباعها والاستغناء بها عن كل ملة ونحلة تخالفها.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾

إن الكفار لن يدفعوا عنك شيئًا من عذاب الله إذا وافقتهم في باطلهم واتبعتهم في ضلالهم، وإن الكفار المعتدين المسرفين في الذنوب من المنافقين واليهود وغيرهم بعضهم يوالي بعضًا ويحبه وينصره ويدافع عنه، والله ولي الأتقياء، ينصرهم ويدافع عنهم ويتولاهم في الدنيا والآخرة، فلا تُنال ولاية الله إلا بطاعته.

﴿٢٠﴾ ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

هذا القرآن الموحى إلى الرسول ﷺ بصائر يهتدي بها العباد إلى الحق، ويستدلون بها على كل خير، ويميزون بها الرشد من الغي، وهي رحمة لمن صدق بها وعمل بمقتضاها واتبع هداها.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

هل يظن من اقترف المعاصي وأكثر من الذنوب وخالف الرسول ﷺ أن يجعله الله كمن آمن بالله وعمل صالحًا وأخلص الطاعة لله وصدق في عبودية ربه، وهذا ظن باطل، فلن يجعل الله المؤمن كالكافر، والبار كالفاجر في الدنيا ولا في الآخرة، قبح هذا الحكم في المساواة التي حكم بها هؤلاء الفجار الأشرار.

﴿٢٢﴾ ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

وخلق الله السموات والأرض بحقٍ لا باطل فيه، وحكمة لا لعب فيها، وليعمل كل عامل في الدنيا بما كُتب له من خير وشر؛ ثم يحاسب الله كل نفسٍ يوم القيامة بما فعلت من صلاح وفساد، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي، ولا يظلم أحدًا بالنقص من حسناته أو الزيادة في سيئاته.

﴿٢٣﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

أفرأيت - أيها الرسول - إلى من جعل هواه إلهه الذي يعبده فلا يهوى شيئًا إلا عمله ولو خالف الشرع، وأضله الله بعد أن بَلَغَهُ العلم وقامت عليه الحجة، وعلم أن ما يفعله ضلال، فلا ينتفع بنصيحة ولا يعتبر بموعظة، وطبع الله على قلبه فلا يفقه شيئًا ولا يفهم دليلاً، وغطى الله بصره بحجاب فلا يبصر براهين القدرة والوحدانية، فمن الذي يرشده إلى الهدى ويوفقه للحق بعدما أضله الله؟ أفلا تعتبرون - أيها العباد - أن من كتب الله عليه الضلال لكفره وبغيه فلن يهتدي أبدًا؟ وفي الآية: النهي عن اتباع الهوى وتحكيمه على الشرع والعقل.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

وقال الكفار: ليس هناك حياة إلا هذه الحياة التي نعيش فيها، وهم ينكرون الآخرة والبعث بعد الموت، وما يفنينا إلا كر الليالي والأيام وتعاقبهما، مكذبين بأن الله هو المحيي المميت، وما للكفار علم ولا برهان على صحة ما قالوا: إنما يتكلمون بالاحتمال والخيال والوهم والظن.

﴿٢٥﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

وإذا تُتلى على الكفار آيات الله البينات في كتابه الحكيم ما كان لهم حجة في معارضة القرآن إلا قولهم للرسول ﷺ أعد لنا أنت وأتباعك من مات من آبائنا لنراهم أحياء إن كنتم صادقين أن الله يبعث من في القبور ويحيي الأموات.

﴿٢٦﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

قل - أيها الرسول - لهؤلاء الكفار: الله تعالى يحييكم في الدنيا ما كتبه لكم من عمر ثم يميتكم ثم يبعثكم ليوم الجمع ليحاسبكم على ما فعلتم، ولكن أكثر العباد لا يعلمون حقيقة البعث بعد الموت.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

ولله - سبحانه - ملك السموات السبع والأرضين وتدبيرهن وتصريفهن، لا شريك له في الخلق والأمر والعبودية، ويوم تقوم الساعة التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين يهلك الكفار وتذهب أعمالهم ويبطل سعيهم؛ لأنهم جحدوا البراهين وكذبوا بآيات الله.

﴿٢٨﴾ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وترى يوم القيامة كل أهل دين جاثين على ركبهم من شدة الخوف وعظم الهول، وكل أمة يدعوها الله إلى كتاب أعمالها من حسنات وسيئات ويجازيهم على ما فعلوا من خير وشر.

﴿٢٩﴾ ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

هذا كتاب الله الذي كُتبت فيه الحسنات والسيئات ينطق بما فعله الناس من صلاح وفساد بلا زيادة ولا نقصان، إن الله يأمر الملائكة أن تسطر أعمال بني آدم حسنها وسيئها.

﴿٣٠﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾

فأما المؤمنون بالله ورسوله ﷺ، الصالحون الذين عملوا بالطاعة وانتهوا عن المعصية؛ فيدخلهم الجنة برحمته، ودخولهم الجنة ظفر كبير وفلاح عظيم؛ لأنهم نالوا المطلوب ونجوا من المرهوب.

﴿٣١﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

وأما الكفار المكذبون فيقال لهم - تبكيتًا وتعنيفًا -: ألم تكن آيات الله في كتابه تُقرأ عليكم وقد قامت بها عليكم الحجة فأعرضتم وتكبرتم عن قبولها والاستجابة لها، وكنتم قومًا مسرفين في الخطايا، مكثرين من الآثام لا تؤمنون بالحساب ولا بالثواب ولا بالعقاب.

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾

وإذا قيل للكفار: إن ما وعد الله به من البعث بعد الموت حق وصدق، وأن الساعة سوف تقع لا شك في وقوعها، قلتم: ما ندري عن الساعة شيئًا ولا نصدق بقيامها إلا توهمًا، وما عندنا يقين قاطع بصدق وقوعها.

﴿٣٣﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

وظهر للكفار يوم القيامة قبح ما فعلوه في الدنيا من تكذيب وذنوب، وحل بهم عاقبة ما كان يسخرون منه ويستهزئون به.

﴿٣٤﴾ ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

وقيل للكفار يوم القيامة: هذا اليوم نترككم في عذاب النار كما تركتم الإيمان بالواحد القهار واتباع النبي المختار، ومقركم نار جهنم دار إقامتكم، وليس لكم ناصر يدفع عنكم العذاب.

﴿٣٥﴾ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

هذا العذاب الذي نزل بكم؛ لأنكم سَخِرتم من آيات الله وبراهينه ولم تأخذوها بجد وقوة وقبول، وخدعكم زخرف الدنيا الزائل، وافتتنتم بمظاهرها، فاليوم لا تخرجون من النار، ولا تعودون إلى الدنيا لتؤمنوا وتتوبوا من الكفر والتكذيب.

﴿٣٦﴾ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

فلله وحده الثناء الجميل والشكر الجزيل على صفات كماله وجزيل أفضاله وجميل أفعاله، وهو خالق السموات والأرض ومن فيهما ومالكهما ومدبرهما، وهو خالق جميع المخلوقات والمتصرف في الكائنات.

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

ولله وحده العزة والجبروت، والعظمة والسلطان والجلال والكمال في السموات والأرض، وهو العزيز الذي يقهر من غالبه ويخذل من حاربه، الحكيم في خلقه وصنعه وحكمه وشرعه.

مكية

سورة الأحقاف

ترتيبها ٤٦ | آياتها ٣٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿حمٓ﴾

هذه الحروف المتقطعة الله أعلم بمراده بها.

﴿٢﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

هذا القرآن أنزله الله وحيًا منه على رسوله ﷺ، والله هو العزيز يعز من تولاه ويذل من عاداه، الحكيم في خلقه وتقديره وفي شرعه وتدبيره.

﴿٣﴾ ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾

ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وما خلقهما لهوًا ولا لعبًا ولا عبثًا، تعالى الله عن ذلك، بل يُعبد وحده ويُطاع دون سواه ولا يشرك به شيئًا، ويقام العدل في العالم إلى وقت محدّد عند الله، والذين كذبوا بآيات الله وجحدوا ألوهيته عما خوفهم به القرآن والرسول ﷺ معرضون، لا يؤمنون ولا يستجيبون.

﴿٤﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أرأيتم الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله، أروني شيئًا خلقوه من الأرض أم لهم قسم من خلق السموات حتى يصرف لهم شيء من العبادة ويشرك بهم مع الله في ألوهيته، تعالوا بكتاب يبين ذلك من عند الله ويشهد بصحة ما قلتم، أو تعالوا ببقية علم ممن سبق تؤيد ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم.

﴿٥﴾ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾

لا أحد في العالم أضل ولا أجهل ممن عبد غير الله ودعاه من آلهة باطلة لا تستجيب دعاءه أبدًا ولا تعلم ما يقول؛ لأنها جامدة ميتة عاجزة، إنما هي أحجار وأشجار، وهي غافلة عن دعاء من يعبدها لا تعلم شيئًا ولا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًا.

٦ ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾

وإذا جُمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الآلهة التي تعبد من دون الله أعداء لمن عبدها تتبرأُ منهم وتلعنهم وتنكر عبادتهم.

٧ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

وإذا قرئت آيات الله في كتابه واضحة الدلالة بينة الحجة على الكفار قالوا بعدما سمعوا القرآن: هذا سحر ظاهر لا يشك فيه أحد.

٨ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أم يقول الكفار: إن الرسول اختلق القرآن من عنده وليس وحيًا من عند الله؟ قل لهم - أيها الرسول -: إن اختلقته من عندي فلن تستطيعوا دفع عذاب الله عني، إذا أراد أن يعذبني، والله يعلم ما تقولونه وتخوضون فيه من كلام عن القرآن وعن الرسول ﷺ. كفى بالله شاهدًا علي فيما بَلَّغْتُ وشاهدًا عليكم فيما أجبتم به، وهو - سبحانه - الغفور لمن تاب والرحيم بمن أحسن واستجاب.

٩ ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: ما كنت أنا أول رسول أرسله الله إلى عِبَادِه بل سبقني رسل، وما أدري ما يفعل الله بي ولا بكم في الدنيا، فعلم الغيب لله وحده إنما علي البلاغ، ما أتبع في كل أموري إلا الوحي الذي نَزَّله الله عَلَيَّ، وما أنا إلا نذير من الله يخوف من خالف أمر الله عذاب الله، وهذا الإنذار بيّن واضح فيما أدعو إليه.

١٠ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أخبروني إن كان القرآن وحيًا من عند الله وأنتم كذبتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وغيره على أن القرآن من عند الله كما جاء في التوراة، فَصَدَّق بالقرآن وعمل به وأنتم كذبتم وكفرتم فما أشد كفركم وأعظم ظلمكم لأنفسكم، إن الله لا يرشد إلى الصواب من كفر بالكتاب، ولا يهدي للحق من كذب بالصدق.

١١ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾

وقال الكفار للمؤمنين: لو كان إيمانكم بالرسول ﷺ واتباعكم إيَّاه خيرًا وفضيلة كنا سبقناكم إلى الإيمان والاتباع، وإذ لم يهتدوا بالقرآن ولم يؤمنوا به فسيقولون: هذا كذب منقول عمن سبق، وهو من خرافات الأولين.

١٢ ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾

ومن قبل القرآن أنزل الله التوراة على موسى إمامًا لبني إسرائيل يتبعون ما فيها من الهدى، ورحمة لمن عمل بما فيها، وهذا القرآن يصدق ما قبله من الكتب التي أنزلها الله على رسله، أنزله الله بلغة العرب ليكون مفهومًا على أهل اللسان؛ لينذر الكفار عذاب النار ويبشر المحسنين بجنات الخلد في مقعد صدق أمين.

١٣ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

إن الذين قالوا: ربنا الله فشهدوا بالربوبية والألوهية لله، ثم استقاموا على طاعته واجتنبوا محارمه، فلا خوف عليهم مما أمامهم من أهوال، ولا حزن عليهم من تبعة الأعمال ولا ما خلفوه من أولاد وأقوال.

١٤ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

هؤلاء الأبرار هم أهل جنة النعيم، باقين في الجنة أبدًا بلا موت ولا خروج منها، ثوابًا من الله وكرامةً لهم؛ لأنهم أحسنوا العمل وأخلصوا لله العبادة.

١٥ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

ووصى الله الإنسان ببر والديه وألزمه ذلك، يرفق بهما في حياتهما ويحسن إليهما بعد موتهما بالدعاء والتصدق وأنواع البر إذا كانا مسلمين، فأمه حملته في بطنها على تعب ومشقة وآلام وأوجاع، وولدته على مشقة شديدة وتعب وألم، وزمن حمله وفطامه ثلاثون شهرًا، فالأم أعظم حقًا على الابن من الأب، حتى إذا وصل هذا المولود من تمام القوة وكمال الاعتدال، وبلغ أربعين سنة من عمره دعا ربه قائلاً: ربي ألهمني شكر نعمتك التي تفضلت بها علي وعلى والدي، ووفقني لعمل صالح ترضاه، وهو ما صاحبه الإخلاص وموافقة السنة، وأصلح ذريتي باستقامتهم على الدين، إني تبتُ إليك من سيئاتي، وإني انقدتُ لأمرك وخضعتُ لسلطانك واستسلمت لشرعك.

١٦ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾

أولئك الصالحون الأبرار يتقبل الله منهم أحسن ما عملوا من الصالحات، فيجعل ثواب أعمالهم على مقدار ثواب أحسن ما فعلوه، ويعفو عن سيئاتهم ويتجاوز عن ذنوبهم، يدخلون في جملة من يدخل الجنة، وهذا وعد من الله الذي لا يخلف وعده، وهو وعد الصدق الذي لا شك فيه ولا ريب.

١٧ ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

والذي قال لوالديه لما دعواه إلى توحيد الله والإيمان باليوم الآخر: قبحًا لكما أتخبرانني بأنني سوف أبعث من قبري حيًا وقد هلك من قبلي من الأمم ولم يعد أحد منهم إلى الحياة، ووالداه يدعوان الله له بالهداية ويقولان: ويل لك، آمن بالله وصدق رسوله واتبع دينه، فإن ما وعد الله به صدق لا شك فيه، فيرد عليهما بأن ما أخبراه به إنما هو خرافات السابقين، وما نقل من كتب المتقدمين من حكايات كاذبة.

١٨ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾

هؤلاء الفجار الذين سبقت أوصافهم هم الذين وجب عليهم عذاب الله، ووقع بهم عقاب الله وسخطه في جملة أقوام سبقوهم من الجن والإنس في الكفر والتكذيب، إنهم كانوا خاسرين بأخذهم الكفر بالإيمان والعذاب بالنعيم.

١٩ ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ولكل طائفة من الأبرار والفجار منازل عند الله في الجنة والنار، بحسب ما عملوا من خير وشر، كل له منزلة على حسب عمله، وليجازيهم الله على حسب ما فعلوه، فلا يزاد في سيئاتهم بل قد يعفو، ولا ينقص من حسناتهم بل قد يزيد، كرمًا وتفضلاً.

٢٠ ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

ويوم القيامة يعرض الكفار على النار، ويقال لهم - تبكيتًا -: لقد أذهبتم طيباتكم واستعجلتم شهوات نفوسكم وتمتعتم بها في الحياة الدنيا، فيوم القيامة تُعَاقَبُون - أيها الكفار - بعذاب الخزي والذل والعار، بسبب تكبركم عن قبول الحق وعنادكم وخروجكم عن طاعة الله وتجبركم على عباد الله.

٢١ ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ۖ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

واذكر - أيها النبي - نبي الله هودًا أخا قوم عاد من النسب لا في الديانة، يوم خوّف قومه عذاب الله، وهم في ديارهم بالأحقاف جنوب جزيرة العرب، وقد تقدمت الرسل على هود بتخويف أقوامهم عذاب الله إن لم يؤمنوا،

ودعوتهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وقال لهم هود: إني أخاف عليكم عذاب الله في يوم شديد الكرب عظيم الهول إن لم تؤمنوا به وتوحِّدوه.

﴿٢٢﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

قالت عاد لرسولهم هود: هل جئت إلينا برسالتك لتصرفنا عن عبادة آلهتنا من دون الله؟ فإن كنت صادقًا فيما تدعونا إليه فتعال بعقاب الله الذي تتوعدنا به.. قالوه سخرية منهم واستبعادًا للعذاب.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾

فرد هود عليهم بقوله: إن علم مجيء العذاب عند الله وحده ولا علم لي بذلك، إنما أنا مبلغ عن الله رسالته، أقيم الحجة عليكم وأنذركم بالعذاب، ولا أعلم متى يقع، ولكني أراكم قومًا جهلاء في عنادكم وتكبركم واستخفافكم بأمر الله.

﴿٢٤﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

فلما رأى قوم عاد العذاب معترضًا في السماء قد سد الأفق كأنه سحاب، قالوا: هذا السحاب سوف يمطرنا ماءً نغاث به، فرد عليهم هود وقال: ليس هذا سحاب غيث ورحمة لكنه عارض عذاب ونقمة، وهو الذي استعجلتم نزوله بكم فذوقوه، وهو ريح شديدة مؤلمة قاتلة.

﴿٢٥﴾ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

تدمر كل ما مرت به مما أمرت بتدميره بإرادة الله - عز وجل -، فأصبحوا بعد هلاكهم وتدميرهم لا يشاهد في ديارهم إلا بيوتهم خاوية على عروشها، وبمثل هذا العقاب يعاقب الله كل مجرم كافر مكذب.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

ولقد سهل الله لقوم عاد وسائل التمكين في ديارهم من أهل ومال وولد وقوة وجاه مثلما سهل الله لكفار هذه الأمة، وخلق لهم آذانًا لتسمع وعيونًا لتبصر وقلوبًا لتفقه، فما انتفعوا بها بل استعملوها في كل ما يغضب الله؛ لأنهم كانوا ينكرون براهين الله ويكذبون آياته ويحاربون رسله، وحل بهم من العقاب ما كانوا يسخرون منه ويستبعدونه، وهذا وعيد وتهديد لكل جبار عنيد.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾

ولقد أهلك الله ما حول مكة من القرى كعاد وثمود وعذبها، فأباد أهلها ودمر قراهم، وقد أوضح الله لهم البراهين ونصب لهم الأدلة التي تدل على وحدانيته وقدرته؛ لعلهم يعودون إلى الله بإخلاص العبادة له.

﴿٢٨﴾ ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

فهلَّا دافع عن هؤلاء المعذبين آلهتهم التي عبدوها من دون الله، اتخذوها قربانًا يتقربون بها إلى ربهم طلبًا للشفاعة عنده، بل ذهبت عنهم تلك الآلهة وخذلتهم فلم تنصرهم ولم تدفع عنهم عذاب الله، وهذا كذب الكفار وفريتهم في عبادتهم غير الله واتخاذهم آلهة من دونه؛ فليذوقوا نتيجة هذا الكذب والافتراء.

﴿٢٩﴾ ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾

واذكر - أيها النبي - إذ أرسل الله إليك جماعة من الجن يستمعون إلى تلاوتك للقرآن، فلما اجتمعوا عندك وأنت تتلو القرآن قال بعضهم لبعض: أنصتوا لسماع القرآن. فلما انتهيت من تلاوتك وقد آمنوا بالقرآن وصدقوا بما فيه، عادوا إلى قومهم يخوفونهم عذاب الله إن لم يؤمنوا.

٣٠ ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

وقالوا لقومهم: يا قومنا: إنا سمعنا قرآنًا نُزِّل على محمد ﷺ من بعد موسى - عليه السلام -، وهذا القرآن يصدق ما قبله من كتب الله التي أنزلها الله على رسله، وهو يرشد من آمن به إلى طريق الهدى وسبيل النجاة.

٣١ ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

يا قومنا استجيبوا لرسول الله ﷺ واتبعوه واهتدوا بهداه الذي بعث به، يغفر الله لكم من ذنوبكم وينجيكم من عذاب شديد مؤلم في نار جهنم.

٣٢ ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

ومن لا يستجب للرسول ﷺ ويتبعه فليس بفائت على الله في الأرض ولن يعجز ربه إذا أراد عقوبته، وليس له من دون الله من ينصره فيدفع عنه عذاب الله، أولئك الذين لم يجيبوا داعي الله في بعد كبير عن الحق وذهاب عن الرشد.

٣٣ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أجهلوا قدرة الله وعظمته وهو الذي خلق السموات والأرض ولم يعجز عن خلقهن ولم يصبه تعب ولا نصب سبحانه؟ وهو قادر على إحياء الموتى من قبورهم وإخراجهم أحياء للحساب عنده، بلى ذلك سهل هين على من لا يتعاظمه شيء ولا يعجزه أمر، إنه على كل شيء قدير يفعل ما أراد.

٣٤ ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

ويوم القيامة يعرض الكفار على النار، ويقال لهم: أليس هذا العذاب الذي كنتم توعدون حقًا كما تشاهدونه؟ فيقولون: بلى وربنا هذا العذاب حق، فيقال لهم: فذوقوا هذا العذاب واصلوا النار التي كنتم تجحدون بها في الدنيا.

٣٥ ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

فاصبر - أيها الرسول - على أذى الكفار وتكذيب الفجار كصبر أولي العزم الأبرار وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأنت منهم، ولا تستعجل نزول العذاب بكفار قومك، فإنه إذا نزل بهم وشاهدوه كأنهم لم يعيشوا في الدنيا إلا ساعة من نهار لقصر الأعمار. هذا القرآن بلاغ للعالمين أجمعين، ولا يهلك بعذاب الله إلا من جحد وحدانية الله وخرج عن طاعته.

مدنية

سورة محمد

ترتيبها ٤٧ | آياتها ٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

الذين جحدوا وحدانية الله، وصدوا الناس عن عبادة الله أذهب الله ثواب أعمالهم ومحقها وأبطلها، فلا نفع لها بل عذبهم بها.

٢ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾

والمؤمنون بالله ورسوله ﷺ العاملون بطاعته المجتنبون معاصيه والذين يصدقون بالقرآن ويعملون بما فيه - وهو الحق الذي لا شك ولا ريب فيه - ستر عليهم ذنوبهم، وعفا عنهم، ولم يؤاخذهم بها وأصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة وشرح صدورهم للحق وتولى شؤونهم.

٣ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾

ذلك الإضلال للكفار، والهداية للأبرار، سببه أن الكفار اتبعوا الشيطان، وأن الأبرار أطاعوا الرحمن واتبعوا سيد ولد عدنان ﷺ، وكما فصّل الله أحوال الكفار والأبرار يضرب الله لعباده الأمثال لإزالة الإشكال، أو ليعرِّفَ كلاً منهم ما يناسبه من أهل الهدى والضلال.

٤ ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾

فإذا لقيتم - أيها المؤمنون - الكفار في أرض المعركة فجدّوا في قتالهم، واقصدوا أعناقهم بضرب السيوف، حتى إذا أكثرتم القتل فيهم وضعفت قوتهم وقلّت شوكتهم فشدوا قيد الأسرى؛ فإمّا أن تمنوا على الأسير بإطلاقه بلا عوض وإما أن تقبلوا الفداء بمال أو أسير مسلم عندهم واثبتوا على هذا حتى ينتهي القتال، هذا هو حكم الله في ابتلاء المؤمنين بالكفار وأحكام القتال التي شرعها الله، ولو أراد الله لانتصر من الكفار وقهرهم بلا قتال من المؤمنين، ولكن كتب قتال الكفار على المؤمنين، وشرع الجهاد ليظهر الصادق من الكاذب، ويتخذ من المؤمنين شهداء، وليعلم من ينصر دينه، ولتتم سنة المدافعة، وليتخذ من عباده أنصارًا لدينه، ومن قتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فأجره محفوظ عند الله، ولن يبطل الله ثواب عمله.

٥ ﴿ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾

سيرشدهم إلى عمل ما يرضيه ويوفقهم لكل خير، ويصلح لهم أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم فيسعدون في الدنيا والآخرة.

٦ ﴿ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴾

ويدخل من قتل في سبيله جنة النعيم، وقد بينها لهم وعرفهم بها في الوحي، وعرّفهم بأماكنهم إذا دخلوها.

٧ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله: إن تنصروا الله بطاعته واتباع رسوله ﷺ والعمل بشرعه والجهاد في سبيله بالمال والنفس واللسان والقلم وغير ذلك، ينصركم الله على أعدائكم، ويجعل العزة لكم، ويثبت أقدامكم عند القتال بإنزال السكينة عليكم والثبات فلا تفروا.

٨ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾

أما الكفار فهلاك لهم وغضب من الله وسخط عليهم، وقد أبطل الله أجور أعمالهم.

٩ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾

لأن الكفار كرهوا ما أنزله الله على رسوله ﷺ من الوحي في كتابه وسنة رسوله ﷺ، وكذبوا به وأعرضوا عنه، فأبطل الله ثواب عملهم؛ لأنها كانت بلا إخلاص ولا متابعة ولا إيمان.

١٠ ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾

أفلم يسافر الكفار في الديار فيشاهدوا الآثار ليستدلوا بها على ما نزل بأهلها من عذاب ودمار فيتعظوا بذلك، لقد دمّر الله مساكن الكفار، ولكل كافر مثل ذلك عند الله إذا استمر على كفره، فالجزاء واحد.

﴿١١﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾

ذلك الذي فعله الله بأوليائه المؤمنين من نصر وتمكين وكرامة ونعيم، وما فعله بأعدائه الكفار من هزيمة وإذلال وعذاب في نار الجحيم؛ لأن الله ولي المؤمنين ونصيرهم، وأما الكفار فلا ولي لهم يرعى شؤونهم ولا نصير لهم يدافع عنهم.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾

إن الله يدخل المؤمنين الصالحين الذين عملوا بطاعة الله وتركوا معاصيه جنات تجري من تحت دورها وقصورها وأشجارها الأنهار؛ جزاء على عملهم الحسن، أما الكفار فمثلهم كمثل البهائم يتمتعون في الدنيا ويأكلون، وليس لهم عمل صالح ولا مقصد حسن، إنما همهم شهواتهم ولذائذهم، كأنهم الدواب التي لا عقل لديها ولا همة، ونار جهنم مستقر لهم يخلدون فيها.

﴿١٣﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾

وكم من قرية سابقة كانت أكثر قوة وبأسًا من مكة قرية الرسول ﷺ التي أخرجته، منها قد أهلك الله تلك القرى ودمّرهم فلم يجدوا من يدفع عنهم العذاب.

﴿١٤﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾

أفمن كان على برهان واضح، ودليل ظاهر من الله فهو يعبد الله على بصيرة ويجتنب ما نهى الله عنه، كمن حسّن له شيطانه قبيح فعله، وأطاع نفسه الأمارة وهواه المضل، فعصى ربه بالإشراك به واقتراف الذنوب فليس عنده برهان ولا دليل؟ لا يستويان.

﴿١٥﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾

صفة الجنة التي وعد الله عباده الأتقياء الأبرار بأن فيها أنهارًا جارية من ماء زلال عذب لم يتغير بطول المكث، وأنهارًا من لبن صاف لذيذ لم يتغير طعمه، وأنهارًا من خمر يلتذ بها شاربها بلا صداع ولا سكر، وأنهارًا من عسل قد صفي من القذى فهو الغاية في حسن الطعم وتمام النفع، وللأبرار في الجنة من كل أنواع الثمار ومختلف الأطعمة، وأرفع من ذلك غفران الله لسيئاتهم والعفو عنهم، هل من هذا حاله في النعيم كمن بقي أبدًا في النار لا خروج له منها، وسقوا في نار جهنم ماءً حارًا بلغ الغاية في الحرارة، فلما استقر في بطونهم قطّع أمعاءهم من شدة حرارته؟ لا يستويان.

﴿١٦﴾ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾

ومن المنافقين من يستمع إليك - أيها النبي - بغير فهم ولا فقه ولا قبول، معرضين عن الإيمان، غير مبالين بالوحي، حتى إذا خرجوا من مجلسك قالوا لمن حضر المجلس من أهل العلم والفقه في الدين - على سبيل السخرية - ماذا قال محمد قبل قليل؟ أولئك الذين ختم الله على قلوبهم بسبب نفاقهم فلا يفقهون ولا يعون، واتبّعوا ما تهواه نفوسهم من الكفر والفسوق.

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾

والذين اهتدوا برسالة الرسول ﷺ واتبعوا النور الذي أنزل معه زادهم الله هدى، فثواب الحسنة الحسنة بعدها، ووفقهم لأعمال البر وخصال الخير وسهلها عليهم، ويسر لهم عمل الصالحات وترك المنكرات.

﴿١٨﴾ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾

ما ينتظر الكفار إلا القيامة التي وعدهم الله بها تفجؤهم وهم لا يشعرون بها على غرة منهم، وقد ظهرت علامات الساعة ولم يستعدوا لها بإيمان وتوبة، فكيف يمكنهم التذكر إذا فجأتهم الساعة وقد فات الأوان؟!

﴿١٩﴾ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾

فاعلم - أيها الرسول - أنه لا يستحق العبادة إلا الله، وأنه لا شريك له، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات، والله يعلم حركتكم بالنهار في الأعمال واستقراركم بالليل للراحة من الأشغال، وفي الآية الجمع بين التوحيد والاستغفار والعلم والعمل.

﴿٢٠﴾ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾

ويقول المؤمنون بالله ورسوله ﷺ: هلاّ أنزل الله على رسوله ﷺ سورة من القرآن تأمرنا بقتال الكفار، فإذا أنزل الله سورة محكمة بذكر ما بينه الله لعباده وما فرضه عليهم وذكر فيها الجهاد رأيت الذين في قلوبهم مرض النفاق من الشك والريبة والتكذيب ينظرون إليك - أيها النبي - نظر الذي أغمي عليه خوفًا من الموت؛ لشدة جزعه، والأولى بل الواجب على هؤلاء المنافقين أن يستجيبوا لله ولرسوله ﷺ.

﴿٢١﴾ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾

الأجدَر لهم أن يطيعوا الله ويتبعوا رسوله ﷺ وأن يقولوا قولاً صوابًا موافقًا الكتاب والسنة، فإذا وجب قتال الكفار وأمر الله عباده المؤمنين بذلك فلو أن المنافقين حينها صدقوا الله بالاستجابة لأمره والمسارعة لما أحبه الله لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة من مخالفة أمر الله وترك الجهاد.

﴿٢٢﴾ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾

لعلكم إن أعرضتم عن العمل بالكتاب والسنة أن تعصوا الله في الأرض وتتعدوا حدوده بالكفر وسفك الدماء وقطيعة الرحم.

﴿٢٣﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾

ومن فعل هذا الفعل فهو ممن طردهم الله من رحمته فأصم أسماعهم عن سماع ما ينفعهم، وأعمى أبصارهم عن رؤية الحجج الواضحة والأدلة النافعة، فهم في ضلال وغي.

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

أفلا يتدبر المنافقون القرآن فينتفعوا بأحكامه ويتعظوا بمواعظه ويفقهوا براهينه؟ بل قلوبهم مغلقة مقفلة لا تقبل الحق ولا تنتفع به، ولا يصل إليها نور الإيمان.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾

إن المرتدين عن الإيمان الذين رجعوا على أعقابهم تكذيبًا للرسول ﷺ من بعد ما ظهر لهم الحق وبان لهم الدليل، ووضح لهم الهدى الشيطان زيّن لهم عملهم القبيح، ومد لهم في الأمل ومنّاهم بطول البقاء.

﴿٢٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾

ذلك التزيين من الشيطان والإمداد في الأمل بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا ما نزل الله على رسوله حسدًا وبغيًا: سنوافقكم في بعض ما تدعوننا إليه من معصية الله ورسوله، والله يعلم ما يخفونه وما يسرونه من التكذيب والمكر، وفي الآية: التحذير من طاعة غير الله في معصية الله.

﴿٢٧﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾

فكيف حال المنافقين في سكرات الموت إذا قبضت الملائكة أرواحهم، وهم يضربون وجوههم وأدبارهم؟

٢٨ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

ذلك العقاب الذي حل بهم؛ لأنهم اتبعوا ما أسخط الله عليهم من متابعة الشيطان ومخالفة أمر الله؛ ولأنهم كرهوا ما يرضي الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله، فأبطل الله أجر ما عملوه من صدقة وبر وصلة رحم وغير ذلك ومحق ثوابها.

٢٩ ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾

بل ظن المنافقون أن الله لا يكشف لرسوله والمؤمنين ما في قلوب المنافقين من حسد وحقد على الإسلام وأهله؟ بلى إن الله قادر على ذلك ليظهر المؤمن من المنافق.

٣٠ ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

ولو أراد الله لأراك - أيها الرسول - أشخاص المنافقين فلعرفتهم بعلامات ظاهرة فيهم، وسوف تعرفهم وتستدل على أحوالهم فيما يظهر لك من كلامهم حتى تعرف مقاصدهم، والله يعلم جميع أعمال عباده من خير وشر، وسيجازيهم بها.

٣١ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾

وسوف يختبركم الله - أيها المؤمنون - بجهاد الكفار حتى يظهر من صدق في جهاده وصبر، وسوف يختبر الله أقوالكم وأفعالكم بما يقدره عليكم من عسر ويسر؛ ليظهر الصادق من الكاذب.

٣٢ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

إن الذين أنكروا توحيد الله، ومنعوا الناس من الإيمان، وحاربوا أولياء الله، وكذبوا رسوله وحاربوه من بعد ما ظهرت لهم البراهين الصادقة على رسالته لن يضروا الإسلام شيئًا، وسوف يذهب الله أجور أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ لأنهم لم يخلصوا فيها.

٣٣ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

يا أيها المؤمنون: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول بامتثال الأمر واجتناب النهي واتباع الشرع، ولا تبطلوا أجور أعمالكم بالشرك والرياء.

٣٤ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾

إن الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله ومنعوا الناس من الدخول في الإسلام ثم ماتوا على الكفر، فلن يغفر الله ذنوبهم وسيعاقبهم على معاصيهم وينكل بهم في نار جهنم.

٣٥ ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

فلا تضعفوا - أيها المؤمنون - عن الجهاد ولا تطلبوا المصالحة والمسالمة مع أعداء الله وأنتم أعلى منهم وأعز وأقوى؛ لأن الله معكم، ومن كان الله معه فالنصر حليفه والعاقبة له والتوفيق معه، ولن يذهب الله أجور أعمالكم وينقص من ثوابكم شيئًا.

٣٦ ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾

إنما الحياة الدنيا لعب ولهو تشغل عن الطاعات، وتلهي عن الصالحات وتخدع بمظاهرها الناس، وإن تؤمنوا بالله ورسوله ﷺ وتتقوا بفعل ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه، فسوف يثيبكم على أعمالكم الصالحة بأنواع الكرامات من المحبة والقبول والذكر الحسن والنجاة من النار والفوز بالجنة، والله لا يطلب منكم التصدق بجميع أموالكم بل أمركم بإخراج بعضها تزكية لكم ولأموالكم.

﴿٣٧﴾ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكْكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾

إن يطلب الله منكم إنفاق كل أموالكم فيشق عليكم بذلك، وتبخلوا بالإنفاق وتمسكوا عن العطاء، فيكشف ما في قلوبكم من الحقد إذا أمركم الله بالتصدق بما يشق عليكم.

﴿٣٨﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾

ها أنتم - أيها المؤمنون - تدعون للصدقة في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، فبعضكم يبخل بالصدقة، ومن يبخل بالإنفاق فإنما يبخل على نفسه بحرمانها من الأجر والثواب، والله الغني عن عباده ليس بحاجة إلى نفقاتهم، فهو الذي خلقهم ورزقهم، والعباد هم الفقراء إليه، وإن تعرضوا - أيها الناس - عن الإيمان والجهاد في سبيل الله يعذبكم ويأت بقوم آخرين مؤمنين ينصرون دينه، ثم لا يشابهونكم في الإعراض عن الإيمان والجهاد، بل يؤمنون ويجاهدون ويطيعون الله ورسوله.

مدنية

سورة الفتح

ترتيبها ٤٨ | آياتها ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

إن الله فتح لك - أيها الرسول - فتحًا مبينًا ظاهرًا عظيمًا نصرك به على أعدائك، ومكَّن لك في الأرض، وأعزك به، وأعلى قدرك وهو صلح الحديبية؛ لأنه كان الطريق لفتح مكة والفتوح التي بعدها، ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

﴿٢﴾ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾

فتح الله لك هذا الفتح العظيم - أيها الرسول - ليكون سببًا لغفران ما سبق من ذنبك وما لحق لكثرة من أسلم وجاهد وعبد الله، فحصل لك بذلك الأجر والمغفرة؛ لأنك الدال لهم على الإيمان والخير، فكتب لك بقدر أجور من اتبعك؛ ولأنك صبرت على مشقة الأذى والجهاد والدعوة فصارت كفارة لكل ذنوبك، والله - بهذا الفتح - أتمَّ عليك النعمة بنصرك وإظهار دينك وكبت أعدائك، ووفقك ربك لسلوك الطريق المستقيم الموصل لرضوان الله والجنة.

﴿٣﴾ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾

وينصرك بهذا الفتح نصرًا عزيزًا يهاب فيه جانبك ويرهب منك أعداؤك ويمكن لك بسببه من إعلاء كلمة الله.

﴿٤﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

الله هو الذي أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين، فوثقوا بنصر الله، وسكنوا إلى وعده، وثبتوا في المحن، وصدقوا في مواقف الابتلاء، وازدادوا يقينًا في دينهم ورسوخًا في تصديقهم بربهم وبرسولهم، والله له جنود السموات والأرض، ينصر من يشاء من أوليائه ويذل من يشاء من أعدائه، وليس بحاجة إلى نصرة أحد من الناس، ولكن ليبتلي المؤمنين بجهاد الكافرين، ويتخذ من عباده شهداء ويمحص قلوب الأتقياء في مواطن اللقاء، وكان الله عليمًا بما يصلح للعباد، حكيمًا فيما قدره ودبره من أمر الدنيا والمعاد.

٥ ﴿ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

ليدخل الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحت دورها وقصورها وأشجارها الأنهار، وهم باقون في الجنة أبدًا لا يموتون ولا يخرجون منها، ويعفو الله عن خطاياهم فلا يعذبهم بها، وكان هذا الثواب من الله نجاة من كل كرب وظفرًا بكل محبوب.

٦ ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

ويعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين يظنون بالله ظنًا سيئًا أنه لن ينصر أولياءه على أعدائه ولن ينجز لعباده ما وعدهم به من الفوز والفلاح، فعليهم تدور دوائر الخزي والهلاك والذل والصغار، وغضب الله عليهم مع طرده إياهم من رحمته وجنته، وهيأ لهم نارًا تلظى يصلون سعيرها خالدين فيها أبدًا.

٧ ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

ولله - تعالى - جنود السموات والأرض، ينصر بهم من أراد من عباده، وكان الله عزيزًا في انتقامه وسلطانه، حكيمًا في خلقه وصنعه، وتدبيره وشرعه.

٨ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

إن الله أرسلك - أيها الرسول - شاهدًا على الأمة بالبلاغ، تقيم الحجة عليهم وتبين المحجة لهم، وتبشر من أطاعك بالجنة وتحذر من عصاك بالنار.

٩ ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

فبإرسال الله لرسوله ﷺ يؤمن بذلك عباده الصالحون، وينصرون ربهم بنصر دينه في الأرض، ويعظمون الله بالعمل بطاعته وترك معصيته، ويسبحون الله قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

١٠ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

إن المؤمنين الذين يبايعونك - أيها الرسول - في الحديبية على القتال كأنهم يبايعون الله، ويعطون الله العهد على نصرة دينه طلبًا لرضاه ورحمته، يد الله فوق أيديهم، فهو معهم بعلمه - سبحانه - ونصره ورعايته، يسمع أقوالهم ويرى أفعالهم، ويعلم ما تكنه صدورهم، ومن صدق وأوفى بما بايع عليه من الصدق والصبر والجهاد في سبيل الله، فسيمنحه ربه الثواب الجزيل من الفوز بالجنة والنجاة من النار. وفي الآية إثبات اليد لله بما يليق بجلاله سبحانه.

١١ ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

سيقول لك - أيها النبي - الذين تخلفوا عنك في الخروج إلى مكة إذا سألتهم عن سبب التخلف: شغلتنا أموالنا وأهلونا من النساء والذرية فاطلب من الله أن يعفو عنا، وهذا القول يقولونه باللسان، وليس له حقيقة في قلوبهم، فهم كاذبون في قولهم، فقل لهم - أيها الرسول - لا أحد يستطيع صرف خير كتبه لكم ولا دفع شر قدره الله عليكم، وليس الأمر كما تظنون من أن الله لا يطلع على ما أخفته صدوركم، بل هو عالم بما خفي وبما ظهر، لا تخفى عليه خافية، وسوف يحاسبكم بما أعلنتم وأسررتم.

١٢ ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾

وليس بصحيح عذركم من أن الأموال والأهل شغلتكم عن الخروج مع الرسول ﷺ، بل الصحيح أنكم ظننتم أن الرسول ﷺ والمؤمنين معه لن يعودوا إلى أهليهم وسيهلكون، وحسَّن إبليس لكم هذا الظن الكاذب فاعتقدته قلوبكم،

وظننتم أسوأ الظن من أن الله لا ينصر رسوله، ولا يعلي كلمته، ولا يعز دينه، وكنتم قومًا خاسرين فاشلين لا خير فيكم ولا صلاح يُرجى منكم.

﴿١٣﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾

والذي لا يؤمن بالله ولا برسوله ولا يعمل بشرع الله فإنه كافر، وقد هيأ الله للكفار عذاب النار مع الخزي في الدنيا، والعار والذل والصغار.

﴿١٤﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

ولله ملك السموات والأرض وله تدبيرهما، يعفو عمن أراد من العباد كرمًا وفضلاً، ويعذب من أراد منهم جزاءً وعدلاً، وكان الله كثير العفو والغفران لمن تاب من العصيان، واسع الرحمة لمن أناب إليه.

﴿١٥﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

سوف يقول لك الذين تخلفوا عنك - أيها الرسول -: إذا خرجت أنت ومن معك من المؤمنين إلى غنائم خيبر التي وعدكم الله بها، دعونا نخرج معكم إلى خيبر لنصيب معكم من الغنائم، يريدون أن يغيروا ما وعدكم الله به، وما قدره من عدم خروجهم معكم، فقل لهم أيها الرسول: لن تخرجوا معنا لغنائم خيبر؛ لأن الله أخبرنا قبل عودتنا إلى المدينة أن غنائم خيبر لمن شهد الحديبية مع الرسول ﷺ وليس لمن غاب عنها شيء منها فسوف يقول لكم المخلفون: ليس الأمر كما قلتم من أن الله قضى بذلك، لكنكم منعتمونا من الخروج معكم حسدًا منكم لنا لئلا يحصل لنا من غنائم خيبر شيء، وقد كذبوا في ذلك، فهم لا يفقهون في أحكام الله ودينه، ولا يفهمون ما يحل لهم وما يحرم عليهم إلا أمورًا يسيرة ظاهرة سمعوا بها.

﴿١٦﴾ ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

قل - أيها الرسول - للبدو الذين تخلفوا عن الخروج معك: ستدعون إلى قتال قوم أهل بأس شديد في المعارك، تقاتلون هؤلاء القوم أو يدخلون في الإسلام، فإن تطيعوا الله وتقاتلوا مع رسوله يثبكم على ذلك ثوابًا عظيمًا وهو الجنة، وإن تعرضوا عن الاستجابة وتعصوا الله كما عصيتموه يوم تركتم الخروج مع الرسول ﷺ إلى مكة يعذبكم عذابًا مؤلمًا موجعًا.

﴿١٧﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

ليس على الأعمى إثم، ولا على الأعرج إثم، ولا على المريض إثم إذا تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله، فهم معذورون لهذه العاهات، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحت دورها وقصورها وأشجارها الأنهار، ومن يعرض عن طاعة الله وطاعة رسوله ويترك الجهاد في سبيله يعذبه عذابًا مؤلمًا موجعًا.

﴿١٨﴾ ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

لقد رضي الله عن المؤمنين الذين بايعوك بيعة الرضوان تحت الشجرة، فاطلع على ما في قلوبهم من الإخلاص والصدق والإيمان، فأنزل الله على قلوبهم طمأنينة الإيمان وثبتهم وزادهم يقينًا ورسوخًا في الدين، وأخلف عليهم عما فاتهم بصلح الحديبية فتح خيبر وهو قريب من صلح الحديبية.

١٩ ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

وعوضهم مغانم كثيرة من أموال اليهود في خيبر، وكان الله عزيزًا في انتقامه ممن عاداه، وهو المعزّ لمن والاه، حكيمًا في خلقه وصنعه، وتدبيره وشرعه.

٢٠ ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

وعدكم الله أيها المؤمنون مغانم كثيرة تأخذونها في زمانها الذي كتبه الله؛ فقدم الله لكم غنائم خيبر، وحماكم من أذى الناس فلم يصبكم شيء مما أعده الكفار من الحرب والمكيدة، وحفظ أهلكم وأموالكم في المدينة من شر أعداء الإسلام؛ وليكون نصركم وهزيمة أعدائكم وما حصل لكم من الظفر والغنيمة علامة تهتدون بها على نصر الله لكم وحسن ولايته وجميل رعايته لكم، ويوفقكم للهدى القويم والصراط المستقيم في أقوالكم وأفعالكم وأحوالكم.

٢١ ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

وقد هيأ الله لكم غنيمة أخرى لم تستطيعوا الحصول عليها، والله وحده الذي قدرها ويسرها لكم، وهي في حكمه وتصرفه، وسوف ينجز لكم ما وعدكم به في جنته؛ لأنه قادر على كل شيء لا يعجزه أمر، ولا يصعب عليه شيء.

٢٢ ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

ولو قاتلكم الكفار في مكة لهزمهم الله ونصركم عليهم، ولفرّوا من المعركة وأعطوكم ظهورهم، وليس لهم من دون الله من يتولى أمورهم ويرعى شؤونهم، وليس لهم ناصر يدافع عنهم، فهم مخذولون خاسرون.

٢٣ ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

وهذه طريقة الله التي سنّها فيمن سلف من الأمم من أنه ينصر أولياءه ويخذل أعداءه، ولن تجد لسنة الله تغييرًا، بل هي ثابتة دائمة مطردة.

٢٤ ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

والله هو الذي منع أيدي الكفار من أن تصل إليكم بأذى، ومنع أيديكم من أن تتناولهم بأذى ببطن مكة، من بعد ما أظهركم الله عليهم ومكّنكم منهم، فأصبحوا تحت قهركم، وهؤلاء جماعة من الكفار قرابة ثمانين، أرادوا المكيدة بالرسول ﷺ، فأمسك بهم الصحابة ثم عفا عنهم الرسول ﷺ. وكان الله مطلعًا على أحوال وأعمال عباده لا يغيب عنه من علمها شيء.

٢٥ ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

هؤلاء الكفار هم الذين كفروا بالله وأنكروا وحدانيته، وكذبوا رسوله، ومنعوكم يوم الحديبية من الوصول إلى المسجد الحرام، ومنعوا الهدي وحبسوه أن يصل إلى مكان نحره من الحرم، ولولا أن بين الكفار رجالاً مؤمنين ضعفاء ومؤمنات يخفون إيمانهم خوفًا من الكفار، وأنتم لا تميزون بين هؤلاء وهؤلاء فينالكم بهذا القتل ذنب وحرج وغرامة بغير تعمد منكم لسلطكم الله على الكفار؛ ليدخل الله في رحمته من أراد من عباده فيهديهم بعد الضلال، لو تميّز المؤمنون عن كفار مكة وانحازوا عنهم لعذب الله الكفار بأيدي المؤمنين أو بهلاك من عنده، ولكنهم اختلطوا بالمؤمنين.

٢٦ ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

إذ حمل الكفار أنفة الجاهلية وكبرها في قلوبهم فلم يتواضعوا للحق ويتبعوا الرسول ﷺ، بل حملهم العناد على الكفر والتكذيب، وأبوا أن يكتبوا في صلح الحديبية «بسم الله الرحمن الرحيم» فأنزل الله الثبات واليقين والطمأنينة

على الرسول وأصحابه فَثَبَتُوا على الحق وثبتوا على لا إله إلا الله، وتمسكوا بها وقاموا بحقها، وهي أصل كل تقوى، والرسول ﷺ أحق بهذه الكلمة وأولى وأجدر من الكفار، وكان الله عالمًا بكل شيء، مطلعًا على كل صغيرة وكبيرة، لا تخفى عليه خافية.

﴿٢٧﴾ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

لقد صدق الله رسوله ﷺ في رؤياه التي رآها في المنام؛ فكانت رؤيا حق وقعت كما أراه الله إياها من أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وهم آمنون لا يخافون الكفار، فمنهم المحلّق لشعر رأسه، ومنهم المقصر، فاطلع الله على الخير والمصلحة في تأخير فتح مكة هذا العام وفتحها فيما بعد ذلك، وهو - سبحانه - يعلم ما لا يعلم العباد؛ لأنه عالم ما خفي وما ظهر، فهيأ الله ويسر من قبل فتح مكة فتح خيبر، وكان صلح الحديبية أول هذا الفتح المبين.

﴿٢٨﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾

الله وحده الذي أرسل محمدًا ﷺ بالبيان الشافي، والهدى الواضح، والبرهان الساطع، ودين الإسلام؛ ليعلي دينه على سائر الأديان، ويكفيك الله - أيها الرسول - ومن اتبعك شاهدًا على صدق رسالتك، وأنه ناصرك ومظهر دينك وقاهر عدوك.

﴿٢٩﴾ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

محمد رسول الله ﷺ، وأصحابه ومن اتبعه أشداء على الكفار، أهل اعتزاز بدينهم، أقوياء بعقيدتهم، وهم رحماء فيما بينهم، بعضهم يعطف على بعض، تراهم ركعًا سجدًا لله في صلاتهم، يحافظون عليها في أوقاتها كما شُرعت، يؤدونها على أكمل وجه، يَطْمَعُون في فضل الله وكرمه ورحمته وثوابه فيخلصون العمل له، علامة عبادتهم لربهم، بادية على وجوههم من الخشية والخشوع والصدق من آثار سجودهم وطاعتهم لربهم وهذه صفتهم المذكورة في التوراة، وصفتهم في الإنجيل كالزرع الذي أخرج من الطين ساقه وفرعه، ثم تكاثرت فروعه، واشتد ساقه، وقوي وصلب واستوى قائمًا على سيقانه، أخضر جميل المنظر، يعجب بشكله ولونه وبهائه الزراع، ليغيظ الله الكفار بهؤلاء المؤمنين في كثرة عددهم وقوة إيمانهم والتفافهم حول الرسول ﷺ وجمال منظرهم، فلا يبغض الصحابة إلا كافر؛ لأن الله لا يغيظ بالصحابة إلا كل عدو لهم، وعد الله المؤمنين الصالحين عفوًا عن سيآتهم وثوابًا جزيلاً على أعمالهم مع خلودهم في جنات النعيم في جوار رب كريم؛ وهذا وعد من الله محقق، والأولى به صحابة الرسول ﷺ، ثم من سار على منهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

مدنية

سورة الحجرات

ترتيبها ٤٩

آياتها ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله ﷺ: لا تفعلوا أمرًا من أمور الدين إلا بإذن من الله ورسوله بحيث يكون موافقًا لشرعه، ولا تبتدعوا بل اتبعوا، ولا تقضوا في شيء إلا بما قضاه الله ورسوله، وراقبوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، إن الله سامع لكل قول، عليم بكل فعل، مطلع على كل سر.

٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

يا أيها المؤمنون: إذا خاطبتم الرسول ﷺ فتأدبوا، ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته، ولا تجهروا عنده بالكلام كما يجهر أحدكم لصاحبه، بل وقروه وقدروه وتأدبوا عنده؛ لأن الله شرفه بالنبوة وأكرمه بالرسالة وميزه عن الناس بالاصطفاء، وجعله خاتم الرسل وأكرم الخلق على ربه، وهو إمام الأولين والآخرين، وسيد الناس أجمعين، وهذا الأدب منكم معه واجب لئلا يبطل الله ثواب أعمالكم، ويُذْهِب أجوركم وأنتم لا تحسّون بذلك.

٣ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

إن الذين يتأدبون مع الرسول ﷺ بخفض أصواتهم إذا خاطبوه أولئك الذين محَّص الله قلوبهم واختبرها وأخلصها لطاعته، لهم من الله العفو عن ذنوبهم، والصفح عن خطاياهم، مع الثواب الجزيل والأجر التام على طاعتهم لربهم.

٤ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

إن الذين ينادونك - أيها الرسول - من وراء الحجرات وهي غرف بيته - عليه الصلاة والسلام - وكان في وقت الظهر - من أناس رفعوا أصواتهم بجفاء وقالوا: يا محمد: اخرج إلينا؛ فهؤلاء أكثرهم لا يعقلون الأدب معه ﷺ، ولا يفقهون حقوقه على الأمة ووجوب توقيره على كل مسلم.

٥ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ولو أن من ناداك - أيها الرسول - من وراء الحجرات صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم عند ربهم؛ لأن الله أوجب عليهم التأدب معك، والله غفور لما حصل منهم من سوء أدب، لجهلهم بما يجب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقاب على ما فعلوا من إخلال بالآداب.

٦ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾

يا أيها المؤمنون بالله وبرسوله: إذا أتاكم فاسق في دينه، ونقل إليكم خبرًا فتثبتوا من صحته، ولا تصدقوه حتى تعرفوا صحته وتتأكدوا من صدقه، خوفًا من أن تؤذوا أحدًا وهو بريء بناءً على خبر الفاسق فتندموا على التسرع في أذية البريء.

٧ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾

واعلموا أن الرسول ﷺ يعيش معكم فوقروه واعرفوا حقه، فإنه يسعى فيما ينفعكم وأنتم قد تقعون فيما فيه ضرر عليكم؛ جهلاً منكم والرسول ﷺ يمنعكم من ذلك، ولو وافقكم في كثير مما تريدونه لوقعتم في المشقة، ولكن الله حبب إليكم الإيمان فسهلت عليكم طاعة الرسول ﷺ، وحسّن الإيمان في قلوبكم فامتثلتم أمر الله، وكرَّه إليكم الكفر بالله فآمنتم به، وكره إليكم الفسوق فهجرتم معاصيه، وكره إليكم العصيان فكرهتم الذنوب وتبتم منها، وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم الراشدون الذين أدركوا الهدى ونجوا من الردى؛ لأنهم عرفوا طريق الحق.

٨ ﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وتوفيق الله لكم للإيمان به وهجر معاصيه، هو فضل من الله تفضل به عليكم، ونعمة منه جاد بها عليكم، والله عليم بمن يشكر النعم ويطيع المنعم، حكيم في تدبير الخليقة على أحسن طريقة.

٩ ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

وإن حصل أن جماعتين من المؤمنين اقتتلوا فيما بينهم فأصلحوا - أيها المؤمنون - بينهم بما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن أصرت إحدى الجماعتين ولم تستجب لحكم الشرع واستمرت في القتال، فقاتلوها حتى تعود إلى الامتثال لحكم الله وحكم رسوله، فإن عادت فأصلحوا بينهما بالإنصاف الموافق لشرع الله ولا تجوروا في الحكم، وعليكم العدل في الحكم واجتناب الظلم، إن الله يحب العادلين في الأحكام بين الأنام الذين يقضون بين العباد بالإنصاف بلا جور ولا فساد، وفي هذه الآية إثبات المحبة لله - عز وجل - بما يليق به سبحانه.

١٠ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

إنما المؤمنون إخوة في دين الله، فهم أسرة واحدة كأبناء رجل واحد في المودة والنصر، فإذا حصل بينهم خلاف وجب على المؤمنين الصلح بينهم مع تقوى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، فمن فعل ذلك رحمه الله بغفران ذنوبه وإعطائه مطلوبه من الأجر العظيم والنعيم المقيم.

١١ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

يا أيها المؤمنون: لا يستهزئ مؤمن بمؤمن، فقد يكون من استهزئ به خيرًا وأفضل عند الله من المستهزئ، ولا تستهزئ امرأة بامرأة، فربما تكون المستهزأ بها خيرًا وأفضل عند الله من المستهزئة، ولا يسب بعضكم بعضًا ولا يعب أحدكم الآخر، ولا ينادي بعضكم بعضًا بما لا يحب من الألقاب المعيبة، بئس اسم الفسوق اسمًا؛ لأنه قبيح، وبئس الوصف وصفًا؛ لأنه شنيع، وهو وصف سيء بعد الإيمان بالله، ويدخل في الفسوق، الاستهزاء بالمسلمين واللمز والغمز والتنابز بالألقاب، ومن لم يتب إلى الله من هذه الأوصاف القبيحة والأخلاق الذميمة فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بفعل هذه الذنوب وارتكاب هذه الخطايا.

١٢ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله: اتركوا كثيرًا من الظن السيء في عباد الله الصالحين، فالأصل في المؤمن الخير، إن بعض الظن السيء إثم؛ لأنه مبني على الشك والاحتمال، ولا تبحثوا عن سقطات الناس، ولا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا يتكلم مسلم في مسلم في غيابه بما يكرهه، أيحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه وهو ميت؟ فما دمتم

تكرهون ذلك فاكرهوا غيبته؛ لأن عرضه كلحمه، وخافوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، إن الله يتوب على من تاب من عباده وأناب، ويرحم من أطاعه واستجاب.

﴿١٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾

يا أيها الناس: إن الله خلقكم من أبٍ واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، فأصلكم واحد، فلماذا يفخر بعضكم على بعض بالنسب؟ والله جعلكم بانتشار الذرية شعوبًا متفرقة وقبائل متعددة؛ ليتعرف بعضكم إلى بعض، إن أكرمكم عند الله أكثركم تقوى له، فالتفاضل بين الناس بتقواهم لربهم، إن الله عليم بمن اتقى، خبير بالأتقى منكم.

﴿١٤﴾ ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾

قالت الأعراب من أهل البادية: آمنا بالله وبرسوله إيمانًا كاملاً، قل لهم - أيها الرسول -: لستم مؤمنين إيمانًا كاملاً، ولكن قولوا: أسلمنا ولم يدخل الإيمان إلى الآن في قلوبكم، فإذا رسخ الإيمان في القلب استكمل صاحبه الإيمان، وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقص شيئًا من أجور أعمالكم، إن الله غفور لمن تاب إليه، رحيم بمن استقام على أمره، وفي الآية العناية بأعمال القلوب، وأن الإيمان يتفاضل، وأنه يجب موافقة الباطن الظاهر.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

إنما المؤمنون الصادقون هم كل من صدق في إيمانه بربه واتبع رسوله ﷺ وعمل بطاعته، ثم لم يَشكُّوا في الإيمان بل اعتقدوا اعتقادًا جازمًا، وصدقوا ذلك بالجهاد بالنفس والمال في سبيل الله لإعلاء كلمته، وهؤلاء هم الذين صدقوا في الإيمان واتبعوا رضوان الرحمن.

﴿١٦﴾ ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾

قل - أيها النبي - للأعراب: أتخبرون الله باعتقادكم وما أسررتموه وهو يعلم السر وأخفى وهو العالم بكل ما في السموات وما في الأرض، والله يعلم كل شيء لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية، فهو العالم بالمؤمن والمسلم والكافر والفاسق والمنافق والبر والفاجر.

﴿١٧﴾ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

يمنّ عليك - أيها الرسول - هؤلاء الأعراب بإسلامهم وطاعتهم لله وتصديقك في نبوتك، كأن لهم الفضل على الله - سبحانه -، فقل لهم: المنّة لله وليست لكم فلا تمنوا على الله اعتناقكم للإسلام، فإن مصلحة إسلامكم تعود إليكم، والله لا تنفعه طاعة الطائع ولا تضره معصية العاصي، فهو الغني عما سواه - سبحانه - ولله المنة عليكم، فهو الذي وفّقكم للإيمان وهداكم للصراط المستقيم، فإن كنتم صادقين في إيمانكم فلا تمنوا به على الله ولا على رسوله ﷺ.

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

إن الله وحده يعلم ما غاب عن العيون في السموات والأرض، لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية، وهو - سبحانه - بصير بأقوالكم وأحوالكم وأعمالكم، وسوف يحاسبكم عليها، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء.

مكية

سورة ق

ترتيبها ٥٠

آياتها ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، وقد أقسم الله تعالى بهذا القرآن ذي المجد والشرف والرفعة، فمن عمل به شرفه الله ورفعه.

﴿٢﴾ ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾

بل عجب الكفار من النبي المختار لما جاء بالإنذار من الواحد القهار، فقالوا: هذا شيء عجيب غريب ما سمعنا بمثله.

﴿٣﴾ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾

كيف نُبعث إذا متنا وأصبحنا ترابًا؟! هذه عودة للحياة بعيدة الحصول لن تكون أبدًا.

﴿٤﴾ ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾

قد علم الله ما تأكله الأرض وتفنيه من أجسامهم، وعنده - سبحانه - كتاب محفوظ من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل في هذا الكتاب، كل ما هو مقدر عليهم في الدنيا والآخرة.

﴿٥﴾ ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾

بل كذب الكفار بالقرآن والرسول ﷺ فهم في أمر مضطرب مختلط، لم يثبتوا على شيء ولم يستمروا على حال، يقولون: إنه سحر أو شعر أو كهانة أو مختلق.

﴿٦﴾ ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾

لماذا أنكر الكفار البعث بعد الموت؟ أفلم يشاهدوا السماء فوقهم كيف رفعها الله فسوى بنيانها وأحكم صنعتها وزينها بالنجوم، وليس فيها شقوق ولا فتوق، فلا عيب فيها ولا خلل، بل هي سليمة محكمة متقنة؟!

﴿٧﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾

ولماذا لم يتفكر الكفار في خلق الأرض كيف بسطها الله وفرشها وسواها ومهدها لعباده، ونصب فيها جبالاً راسخة ثابتة تمنعها من الاضطراب والميل، وأنبت الله في الأرض من كل شكل بهي حسن المنظر من النبات يبهج العين ويسر القلب بجماله.

﴿٨﴾ ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾

والله خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات الدالة على عظمته وقدرته عبرة لمن لديه بصيرة تدل على وحدانية الله، وتخرجه من ظلمة الجهل والغفلة، وتَذْكِرةً يتذكر بها كل عبد تائب إلى الله منيب إلى طاعته خاضع لأمره، منقاد لحكمه خائف من عذابه.

﴿٩﴾ ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾

ونزل الله من السماء مطرًا نافعًا للخلق، هو سبب الخير والنماء والقوت والحياة؛ فأنبت الله به حدائق ملتفة وبساتين غناء، وحب الزرع المحصود، وفي ذلك متاع للإنسان والحيوان.

﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴾ ١٠

وأنبت الله النخيل طويلاً في حسن، فارعًا في جمال، له ثمر بهي حسن الشكل، منظم متراكب بعضه فوق بعض.

﴿ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ ١١

خلق الله ذلك طعامًا وقوتًا لعباده من حبوب وثمار وفواكه وخضراوات ما بين مأكول ومشروب، وأحيا الله بالمطر الذي أنزله من السماء بلدة مجدبة يابسة قد مات نبتها وذبلت أشجارها، وكما أحيا الله بالماء الأرض الميتة فإنه - سبحانه - سوف يحيي الأموات ويخرجهم من قبورهم للحساب.

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾ ١٢

كذبت قبل كفار مكة قوم نوح وأصحاب البئر التي تسمَّى «الرَّس» وثمود، فقد سبقوا في الكفر بالله ومحاربة رسله.

﴿ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴾ ١٣

وكذبت قبلهم أيضًا قوم عاد وفرعون وقوم لوط، كلهم ردّوا رسالة أنبيائهم.

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ ١٤

وكذب كذلك أصحاب الشجرة العظيمة وهم قوم شعيب، وكذبت حِمْير قوم تبع كلهم توافقوا في الكفر بالله ومعاندة الرسل - عليهم السلام -، فنزل بهم عذاب الله الذي توعدهم به، ووجب عليهم العقاب، وحل بهم الهلاك بالحق والعدل.

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ ١٥

أفعجز الله عن إنشاء الخلق الأول من العدم حتى يعجز عن إعادة الخلق بعد فنائه؛ لأن إعادة الخلق بعد الفناء أيسر من الإنشاء، وكل ذلك يسير هيّن على رب الأرض والسماء، ولكن الكفار في اضطراب وشك وريبة من مسألة الإحياء بعد الموت والنشور من القبور.

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ ١٦

ولقد خلق الله الإنسان وعَلِمَ ما تحُدِّثه به نفسه وما يضمر في صدره، والله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد الواصل بين العنق والقلب.

﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴾ ١٧

إذ يكتب الملكان الحافظان عن يمين الإنسان وعن شماله أعماله، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات، كل ملك مترصد يحصي أعمال العبد.

﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ ١٨

ما يتكلم الإنسان بكلمة إلا وعنده ملك يحصي قوله ويكتبه له أو عليه؛ لأنه يراقبه وهو حاضر عنده.

﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ ١٩

وحضرتْك - أيها الإنسان - شدة الموت وكربه بالحق الذي لا مهرب منه ولا مفر، ذلك الموت الذي كنت تروغ منه وتهرب فلا مرد ولا مناص منه.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ ٢٠

ونفخ الملك في القرن لبعث الناس من قبورهم؛ ذلك النفخ في يوم القيامة الذي وعد الله به وهو لا يخلف المعياد.

﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ ٢١

وأتت كل نفس إلى يوم القيامة معها ملك يسوقها إلى الحساب عند الله، وملك آخر يشهد عليها بما عملته في الدنيا من حسن وسيء.

﴿٢٢﴾ ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾

لقد كنت في الدنيا - أيها الإنسان - غافلاً عن يوم القيامة وما فيه من أهوال فلم تتهيأ له، فأزال الله عنك اليوم غطاءك الذي غطى على بصيرتك فلم تبصر الهدى، فالآن ذهبت عنك الغفلة، فبصرك اليوم فيما تراه قوي نافذ شديد.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾

وقال الملك الرقيب على الإنسان الملازم له الذي يكتب حسناته وسيئاته: هذا ما عندي بما كتبته عليه في الدنيا، وهو جاهز معد حاضر مكتوب.

﴿٢٤﴾ ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾

قال الله للملكين (السائق والشاهد): ارميا في جهنم كل مكذب كافر معاند للحق جاحد للرسالة مصر على الذنوب.

﴿٢٥﴾ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾

مناع للخير والحق، معتد على الخلق، فهو مانع لما أوجبه الخالق، مؤذٍ للمخلوق، أمسك عن الخيرات وتعدى الحدود والحرمات، شاك في الوعد والوعيد، غير موقن بالتوحيد.

﴿٢٦﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾

وهو مشرك بالله يعبد معه إلهًا غيره، فارميا به - أيها الملكان - في نار جهنم شديدة العذاب.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

قال شيطانه الذي كان قرينًا له في الدنيا: ربنا ما أغويته ولكنه كان بعيدًا عن الهدى محبًا للغواية، فضلَّ عن الحق ولم أُجْبِره على الكفر.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾

فقال الله تعالى: لا تختصموا عندي اليوم، فلا نفع في هذه الخصومة الآن وقد سبق أن أنذرتكم عن طريق الرسل عذاب هذا اليوم وما فيه من أهوال.

﴿٢٩﴾ ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

ما يُغيَّر القول عندي، فقوله صدق ووعده حق، ولا يعذب الله عبدًا بسيئات عبد آخر، ولا يعاقب أحدًا إلا بما فعل من ذنب بعد أن يقيم عليه الحجة، ولا ينقص من حسنات محسن ولا يزيد في سيئات مسيء.

﴿٣٠﴾ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَل مِن مَّزِيدٍ﴾

وتذكر يوم يقول الله لنار جهنم: هل امتلأت؟ وتقول نار جهنم: هل من زيادة من كفار الجن والإنس؟ فيضع الجبار - سبحانه - قدمه فينزوي بعضها على بعض، وتقول: قط، قط.

﴿٣١﴾ ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾

وقُرِّبت الجنة لمن اتقى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، فكانت غير بعيدة منهم فهم يرونها ليتنعموا برؤيتها.

﴿٣٢﴾ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾

يقال للأتقياء: هذا النعيم هو الذي كنتم توعدون به في الدنيا، وهو لكل تائب عائد إلى الله من سيئاته، حافظ لعمله الصالح من الضياع، وحافظ لحدود الله من الاعتداء، وحافظ لما أوجبه الله عليه.

﴿٣٣﴾ ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾

هو الذي يخاف الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، ويعبد الله كأنه يراه، وأتى إلى الله يوم الحساب بقلب تائب من المعاصي سليم من الذنوب.